مستقبل الثورات في المنطقة الأمية

قراءة قرآنية استراتيجية

من الثورة الشعبية إلى الثورة الإسلامية

الدكتور سعيد الشبلي
saidelchebli@gmail.com

من الثورة الشعبية إلى الثورة الإسلامية

الدكتور سعيد الشبلي

saidelchebli@gmail.com

محفوظة جميع الحقوق

الطبعة الأولى

1443هـ ـ 2022 م

saidelchebli@gmail.com

الإهداء

إلى الأمة الأمية

أهدي هذا الكتاب

أدعوها إلى صراط ربها المستقيم وكتابه الكريم.

وإلى سنّة نبيها الأميّ الكريم صلى الله عليه وسلم.

وإلى ملة أبيها إبراهيم الخليل عليه السلام وإرثه العظيم:

« الكتاب والحكمة والملك العظيم »

مُقـدّمـة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم و بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على النبي الأمي الذي لا نبي بعده،

أما بعد،

فهذا كتابي الذي جعلت له عنوانًا «من الثورة الشعبية إلى الثورة الإسلامية» أهديه إلى الأمة الأمية الناطقة باللسان العربي المبين، التي شرّفها الله تعالى بتنزيل القرآن الكريم بلسانها على رجل منها حلاّه بالفضائل وزكاه بالخُلق العظيم: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: 2]. ثم تفضل سبحانه بأن يلحق بالأميين الأولين ثلّة من الآخرين يسيرون على نفس الهدى

الأول: ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الجمعة: 3]. ثم مدح هذا الخط الأمي الشريف بقوله سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الجمعة: 4].

فعلًا وصدقًا ويقينًا هو فضل الله العظيم الذي وضعه في أمة أمية ما كانت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولا كانت تطمح إلى بلوغ ما بلغته الأمم الخوالي من بناء الحضارات وإقامة المدنيات والتنافس في العلوم والمكتسبات، بل كان جلّ شأنها الرضا بالاستقرار على هامش التاريخ وعلى تخوم الدول والإمبراطوريات العظمى قانعة بالتبعية راضية بالدونية مقرة بالجاهلية.

هذا الفضل العظيم الذي حرمه اللهُ أهلَ الكتاب يهودًا ومن قالوا إنهم نصارى وهم الروم خاصة ومن تبعهم على النصرانية المحرفة، وآثر به الأميين نكاية في المستعلين بالاقتدار العلمي وبالنظر الفلسفي ومرجعية التنظير البشري، حيث ظنوا بأنفسهم الغنى عن الوحي والهدى الإلهي، فآل بهم استعلاؤهم إلى مضاهاة عقائد المشركين ومماهاة أقوال الكافرين، هو الذي رفع شأن الأميين في العالمين وأورثهم عن جدارة إرث إبراهيم الخليل عليه السلام: الكتاب والحكمة والملك العظيم. قال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: 54].

فاز الأميون بإرث إبراهيم الخليل عليه السلام وجمعوا بين القِبلتين، قبلة الروح (البيت العتيق)، وقبلة الحضارة والمدنية (المسجد الحرام)، فكانوا خير أمة أخرجت للناس.

ثم أصابهم ما أصاب الأمم وعراهم الهرم، وتمت عليهم سنة الله تعالى في مداولة الأيام بين الناس، فارتدوا إلى ما كانوا عليه من جاهلية وأعلوا من جديد هبل القبلية فارتدوا دويلات وأشتاتًا من الكيانات المهترئة، وأصبحوا من جديد عبيد اليهود والنصارى يتبعون سننهم ويهتدون بضلالهم، فطبع على قلوبهم وأصبحت لهم في النفاق قدم مستقرة وسيرة مستمرة. فارتدوا في المراتب إلى الدرك الأسفل منها، نكالًا من الله، جزاءً عدلًا بما هجروا القرآن الكريم وتجافوا عن سنة النبي الأمي الكريم ﷺ.

واليوم، وقد آل يوم المنافقين إلى زوال وأصاب دولتهم سوء المآل، كما آل عهد الاستعمار قبل ذلك إلى انحلال، فضعف شأن الكفر كما شأن النفاق، وأصبحت الأمة الأمية على أعتاب عصر جديد من التحرر بإذن الله تعالى، وانفجرت الثورات الشعبية تدشن عصر الحرية، وتستعيد للأمي كرامته الإنسانية بعد أن كان إبان الاستبداد من جملة الكائنات الأنعامية والفصائل الحيوانية يحاكي القردة والخنازير جراء عبادة الطواغيت وتعظيم السادة والكبراء والسير على خطى زعماء الضلال والبهتان ممن زعموا الانتصار لجنس العرب بدون عقيدة ولا شريعة ولا دين سوى ما يستقونه من عقائد وعلوم وقوانين اليهود والنصارى ومن والاهم من الأمم، اليوم يحتاج الأميون إلى عقيدة حقة ربانية وإلى شريعة واضحة رحمانية لا يجدونها سوى في كتاب الله تعالى وسنة ﷺ.

إن سقف الثورة الشعبية الشاملة التي هزت عروش طواغيت عصر الجاهلية الثانية في بلاد الأميين من أمثال زين العابدين بن علي ومعمر القذافي وحسني مبارك وعلي عبدالله الصالح وبشار الأسد ومن على شاكلتهم من حكام العرب أدعياء القومية وزعماء العروبة الجوفاء التي لا تنتمي إلى دين ولا إلى ملة، هو تحقيق الحرية. فالحرية هي الثمرة المجتناة من الثورات الشعبية، وهي من أعظم الثمرات لأنها سرّ خروج الإنسان من الحالة الحيوانية الأنعامية إلى الحالة الإنسانية. فلا يمكن لهذا المخلوق المسمى إنسانًا أن يحافظ على إنسانيته إلا بتحقق شرطها الضروري وهو الحرية.

وكنتيجة مباركة لما بذلته طوائف مجاهدة صابرة في المنطقة الأمية، وبرهانًا على أن دماء الشهداء غالية في ميزان السماء، أهلك الله أعداءنا واستخلفنا في الأرض، وتحررت قوانا وطاقاتنا وأصبحت عقولنا وأيدينا طليقة، وأصبحنا سادة مصيرنا، وأصبح **خطاب الاستخلاف** في حقنا ممكنا ومشروعًا. قال موسى عليه السلام لقومه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 129].

إن هلاك أولئك الطواغيت الذين حكموا كملوك مؤبدين، كان بفضل الله تعالى وحده،

حيث لم يكن بإمكان الشعوب المستضعفة أن تتغلب على الجيوش التي لم يجيشوها إلا لقهرها واستعبادها، ولكنه سبحانه بفضله ومنّه قذف الرعب في قلوب الطغاة ففروا يتقافزون كالقردة المذعورة. ومكّن الله تعالى للمستضعفين.

ولكن تحقق الحرية ليس الشرط الأوحد للتمكين وإن كان شرطه الأول الأكيد. إن شرطًا ثانيًا ضروريًا لا بد من حضوره لنجاح المشروع الاستخلافي يتمثل في الإجابة عن سؤال : **ماذا سنفعل بالحرية التي اكتسبناها ؟**

إن الحرية تملك للطاقات وتمكن من القدرات الذاتية والموضوعية، فالحر أصبح يملك نفسه بعد أن كانت أَمَة في قبضة الطاغية الجبار، ولكن هذه النفس هي وبحسب قانون إلهي وقضاء قدري مشروع للبيع، لأنها بالضرورة تبع إما لمن خلقها فسواها أو لمن دمرها وأغواها وهو الشيطان لعنه الله في كل صوره الجنّية والإنسية. قال ﷺ لكعب بن عُجرة يعظه: «**يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ، النَّاسُ غَادِيَانِ: فمبتاع نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا، أَوْ بَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُوبِقُهَا**»(1).

وقد اشترى الله تعالى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة. قال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 111]. فلم اشترى الله تعالى هذه الأنفس المؤمنة ؟ الجواب: لأنها أنفس حرة تقودها عقول مستنيرة بالإيمان جاهزة ومتحفزة لتنفيذ برنامج الله تعالى في الأرض وهو تطبيق شريعته التي نزّل في كتابه العزيز. لذلك مباشرة بعدها قدّم القرآن الكريم صفات المستخلَفين المؤهلين لحمل رسالة الله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 112].

(1) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» ج 21- ص52 – الرياض - دار الرشد.

ففوق ما هم عليه من صفات التزكية الذاتية كالتوبة والعبادة لله الواحد، فهم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله، وفي هذه الكلمات المختصرة كل موجّهات البرنامج الاستخلافي الثوري الإصلاحي الإسلامي.

الإسلام عقيدة ثورية ناقضة لكل المعتقدات الشركية والكفرية والنفاقية. وهو أيضًا شريعة ثورية ناقضة لكل القوانين البشرية الأهوائية. وكل قانون بشري مهما بلغ من في مدارج الحكمة ورعاية المصالح، لابدّ أن يدخله الهوى مادام لم يستهد بالهداية الإلهية ولم يلتزم بالحدود العظمى الشرعية. وللإنسان أن يجتهد، بل من واجبه أن يجتهد لأن دين الإسلام ورسالته لا يستطيع حملها المقلدون، ولكن اجتهاد المؤمنين مسيّج بحدود الشريعة أي أنه محفوظ من مزلة الأقدام ومن ضلال الخوض في الفتن والمتشابهات بدون نور إلهي هاد.

الثورة الإسلامية انقلاب فردي واجتماعي على المنكر واتجاه نحو الخير والمعروف، يمارسه أناس واعون «المؤمنون» لكي يبنوا الأمة الإسلامية، أمة الخلافة والشريعة السائرة على النهج الأمي المحمدي السائر على النهج الإبراهيمي الحنيفي.

وفي قيام الثورة الإسلامية دمار أهل الكتاب يهودًا ونصارى ومن والاهم من الأذناب (المنافقون)، ولذلك يحرص هؤلاء وأولئك على منع حدوث هذه الثورة، ويدعمون طواغيت العرب بكل قوة. وحيث يتساقط الطواغيت اليوم في المنطقة الأمية ليأذن الله تعالى بعهد الاستئناف الإسلامي في وعد الآخرة الذي بشّر الله به في كتابه العزيز وأنذر به بني إسرائيل قائلًا: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: 7]. فلن تقوم الساعة حتى يقتتل المسلمون واليهود حَتّى يَقُولَ الحَجَرُ وَرَاءَهُ اليَهُودِيُّ: «**يَا مُسْلِمُ، هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَائِي فَاقْتُلْهُ**»[1]. ذلك وعد غير

(1) متفق عليه. رواه البخاري: باب قتال اليهود 4/ 42، حديث رقم 2926. ومسلم باب لا تقوم الساعة: 2238/4، حديث رقم 2921.

مكذوب، ولذلك، فإن على المؤمنين حملة المشروع الأمي الشريف أن يعملوا بكنه الهمة على توجيه مسار الثورات الشعبية لتكتسب وجهًا إسلاميًا.

إن المنطقة الأمية تتجه اليوم نحو رسالتها الإلهية التي خلقت من أجلها وهي رسالة الإسلام، وهي لذلك تكابد كل بلاءات التحريف والتزوير التي سعى أهل الكتاب يهودًا ومن قالوا إنهم نصارى وأعضادهم من المنافقين الموالين لهم إلى إركاسها فيها. وحيث كان النور الهادي الذي وُهبته هذه الأمة عظيمًا وهو نور القرآن الكريم، فقد كان العقاب على هجره كبيرًا أيضًا، وهو ما يفسر اليوم انحطاطنا ووضعنا تحت سائر الأمم. ولذلك فإن التغيير الكبير قادم، ورسالة الله تعالى ستتم بعز عزيز أو بذل ذليل، وستجرف رياح الثورة الإسلامية القادمة كل آثار الانحطاط الناشئ عن تقليد أهل الكتاب ومن والاهم من المحرفين الضالين.

ولا يمكن لأي برنامج سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي بشري أن يفلح في المنطقة الأمية. إن برنامجها هو الذي رسمه أبوها الأول إبراهيم عليه السلام في قوله متوجهًا إلى ربّه: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: 37]. البرنامج الذي سار على خطاه سيدنا الشريف سيد ولد آدم محمد ﷺ الذي طهر البيت من جديد وأنار سبيل القبلة الأولى عند أول بيت، عند أم القرى، في الوادي غير ذي الزرع.

فأبشروا معشر الأميين وسددوا وقاربوا وأعلنوا المشروع وجاهدوا في سبيله، فإن وعد الله آت. وأنا أكتب هذه الكلمات تهاوت يد الطغيان والاستعمار الصليبي في أفغانستان، وانتصرت الطالبان. وإذ تتهدد تونس رياح الانقلاب ويجري على أرض الشام ما يجري من خيانات الفرس المتشيعين بالوهم والكذب والبهتان ومن والأهم من سفهاء العرب، كما يجري ما يجري في أرض مصر وسائر مناطق الأمة الأمية. فكل ذلك إلى زوال قريب بإذن الله تعالى.

إن استرداد المنطقة الأمية لبرنامجها الأصلي، البرنامج الإسلامي عقيدة وشريعة، بات

قاب قوسين أو أدنى لا بمنطق التمرد الطفولي كما فعل بعض الأغرار، ولا بمنطق الاعتزال الصوفي الكاذب كما يفعل الكثيرون من متصوفة السنة المتأثرين بعقائد التشيع سواء دروا أو لم يدروا، بل بمنطق وروح الشهادة على الناس، الشهادة التي عمقها وعي وفهم وانتماء والتزام وانضباط للمشروع الإلهي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ٧٧ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: 77 - 78].

والحمد لله أولًا وآخرًا

تطاوين - تونس

في 28 محرم الحرام 1443

الموافق للسادس من سبتمبر 2021.

saidelchebli@gmail.com

الفصل الأول

الرسالة القرآنية
وحقيقة المشروع الأمي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 156 - 158].

نزل القرآن الكريم على النبي الأمي محمد ﷺ الذي ما كان يتلو من قبله من كتاب ولا يخطه بيمينه حيث كان وأمّته الأمية يعيشون في ضلال الجاهلية وعنف ردّتها عن الحنيفية الإبراهيمية التي طالما أضاءت تلك المنطقة الأمية في عهودها الخوالي.

ولمّا كان من تقدير الله سبحانه وحسن ترتيبه لمواعيد كلماته التامات وهداياته السابغات أن يحمل محمد ﷺ شرف الرسالة الخاتمة، فقد حفظه من ضلالات الجاهلية ومن شرّ صنيعها بالعقل والنفس رغم أنه كان يعيش في عمق أتّونها، ويحيا بين ظهراني كبراء سادة الجهالة والضلال.

إلاّ أنه وهو المحفوظ بعزة الله وقدرته الحكيمة، لم يكن يحمل أي برنامج يدفع شرّ الجاهلية التي عزف عنها؛ ولا يعرف أيّ هدى يمكن أن يعين على إزالة الضلالات ويهدي إلى الصالحات، ولم يكن يملك إلا أن يقلّب وجهه في السماء، وينظر بعينين متوسلتين إلى ربّ السماء سائلًا يعين الحال لا بعين المقال نورًا يكشف عتمة الظلمات، وهدى يذهب الضلالات.

وفي غار حراء، في ذلك الجبل المعلّق بين الأرض والسماء، نزل النّور وانبلج صبح الهدى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ [الشورى: 52 - 53].

نزل النور المبين والهدى المستقيم إذن، وأظهر الله تعالى حقائق وعلامات صراطه المستقيم من جديد في لسان عربي مبين، وأذن باستعادة الحنيفية الإبراهيمية لمشروعها التوحيدي (الإيماني- الإسلامي)، فحقّ عندئذ أن تتلألأ أنوار القبلة الجديدة القديمة، وأن يستعيد البيت الأول سلطانه، وأن ينشر أشعّته على الأرض كقبلة نهائية وبيت أمم ليكون للعالمين هدى ومنارة: ﴿ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴾ [البقرة: 144].

وبالكتاب القرآني الهادي، وبالقبلة المكية الشريفة (المسجد الحرام)، إضافة إلى الحكمة النبوية التوجيهية التطبيقية اكتمل برنامج الدّين، واؤتمن الأمّيون أو على الأصح، ورثوا إرث الخليل إبراهيم عليه السلام: الكتاب والحكمة والملك العظيم. يقول تعالى مؤكّدًا عزل أهل الكتاب وحرمانهم من إرث الخليل عليه السلام وتوريثه في المقابل للأميين: ﴿ أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ٥٤ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ [النساء: 54 - 55]. كان ذلك

ردّا على بني إسرائيل الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب فآمنوا بالجبت والطاغوت وكفروا بالله الواحد ووالوا الذين كفروا ونصروهم على المؤمنين. فما كان منه سبحانه سوى أن حرمهم بعد العطاء وجازاهم عن سوء أعمالهم أسوأ الجزاء.

أسلم الأميّون إذن، واتّبعوا النبي الأمّي وورثوا إرث أبيهم إبراهيم الخليل إذن الذي جعل ميراثًا مشتركًا بين الحزبين، حزب أهل الكتاب والحزب الأمي، فحُرمه أهل الكتاب بعد العطاء، و مُكّن منه الأميون بعد الهجر. ثم إنّ الله تعالى قضى بأن يظهر هذا الميراث الإبراهيمي بواسطة الأمة الأمية ضمن بناء عقائدي وعملي وتوجيهي متكامل الحلقات منسجم نَظرًا وعملًا، فكرًا وسلوكًا وتوجيهًا شكّل في مجمله جوهر المشروع الأمي وجسّد حقائق الرسالة القرآنية التوحيدية.

فبم اكتمل الدين وعلام انطوت رسالة القرآن الكريم ؟

والجواب بتوفيق الله تعالى: أنّ الرسالة القرآنية التي جسّدها المشروع الأمي الخاتم قامت على أركان ثلاثة مضمونية ومنهجية وجهادية.

1. الركن المضموني للرسالة القرآنية

تضمنت الرسالة القرآنية جملة الهدى الإلهي للإنسانية الذي تعهّد الله تعالى به ليكون سببا لنجاة بني الإنسان في قوله تعالى بعد أن أخرج آدم وإبليس من الجنة: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة: 38 - 39]. ولا خلاف في كون مضمون رسالة الدين يتمثل في ركني الإيمان والإسلام، الإيمان اعتقادًا، والإسلام بأركانه عملا صالحًا، وأنّ الإحسان هو حسن التأليف والجمع بين هذين الركنين. ذلك كان عقد الله تعالى مع المؤمنين بعد أن أنزلهم إلى مائدته الأرضية، وحجب عنهم مائدته

السماوية (الجنة) إلى حين. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: 1].

ثم بدأ في تفصيل ما أحلّ وما حرّم من بهيمة الأنعام، مؤكّدا أنه وحده الحاكم، وأنّ إرادته يجب أن تنفّذ بدون قيد ولا شرط إلا ما قيّد هو وشرط: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: 1]. وفي قوله هذا المختصر نبّه إلى جوهر القضيّة الإيمانية الإسلامية، أي جوهر المشروع القرآني متمثلًا في شرط شروطه على من أراد أن يلتزم به ويؤمن وهو شرط الرضا بحكم الله تعالى. وحيث قبل الشرط، فقد جاء محفوفًا بالمشروط؛ فحرّم الله ما أراد: (الميتة، الدم، لحم الخنزير...) وأحلّ ما أراد: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ﴾[المائدة: 3] وقتما أراد.

عندئذ، حقّ أن يعلن الحقّ سبحانه اكتمال الدّين، حيث ظهرت أحكامه مفصّلة كأحسن ما يكون التفصيل، وامتاز الخبيث من الطّيب، وتميّز الدم الحرام من الدّم الحلال، وأوشك الطعام أن يحرم فتداركته الحلّية، كما أوشك أن يكون حلالا فاجتولته الحرمة؛ فسبحان من له الأمر والنهي: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: 3]. جوهر كمال الدين باختصار، أنك أيها الإنسان ملاق ربّك ولا بدّ ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: 110].

2. الركن المنهجي

الأساس المنهجي الأعظم في الرّسالة القرآنية هو التوحيد من الإيمان والإسلام، بين العقيدة والشريعة، وإعمال هذا التوحيد في كل مجالات حياة الإنسان المعرفية والعلمية على السواء. وحيث إنّ اسم الكتاب الكريم «القرآن» بما يعنيه لغة واصطلاحا من معاني التوحيد والجمع والقِران، فإنه أعمل إعجازه المنهجي هذا فذوّب بقدرة منزّله العظيم كل الثنائيات ومحا كل الشركيات، وأخضع الكل للواحد اعتقادًا، كما قرن كل زوج بزوجه

خلقًا وتقديرًا، فكان اسمه الرحمن الجامع بين كل الثنائيات جمعًا زوجيًا هو مشهد تجليه الأعظم فيما خلق وفيما أمر.

وقد يعترض بأنّ الإيمان والإسلام يمثلان الجوهر المضموني للدين، فما علاقتهما بالمنهج؟ فأجيب بأنّ المنهج ليس في مضمون الإيمان والإسلام بل في التوحيد بينهما ضمن نظام هدى وأمر واحد، أي داخل دائرة دين واحد لا تفرق فيه.

إنّ التوحيد آلية منهجية عاملة في كل مضامين الدين الإسلامي سواء في جوانبه العقدية أو التشريعية العملية.

لسنا في حاجة إلي أن نقول إنّ العقيدة التي وحّدت بين الله تعالى والإنسان في عقد الإيمان قد تضامنت مع الشريعة التي وحّدت سائر الجنس البشري بنوعه الأكبر (الذّكور والإناث)، ثم بسائر تقسيماته الكبير والصغير،الغني والفقير،الحاكم والمحكوم...

إنّ التوحيد هو صبغة الله تعالى الذي وحّد مسارات الحياة البشرية كما وحّد مسارات الأكوان ليؤوب كل شيء إلى أمره ونهيه، وليخضع كل شيء لسلطانه الواحد الذي لا يقهر.إنّ الإيمان لا يكتمل إلاّ بالإسلام تماما كما لا اكتمال للنهار إلاّ بالليل، ولا للسّماء إلا بالأرض، ولا للذكر من كل شيء إلاّ بالمؤنّث من كل شيء، سنّة لله الذي خلق الأزواج كلها.

ومن خلال هذه الآلية المنهجية الرحمانية العظمى التي نظمت كيفية الخلق (نظام الخلق الزوجي الرحماني)، ثم نظمت كيفية الأمر (نظام التوجيه الشرعي القرآني)، نتأسس مشروعية الشريعة القرآنية الإسلامية لتكون النظام الأحق بل الأوحد لسياسة البشر فوق الأرض وما سواها أهواء لا يستقيم لها بنيان لذي علم وفهم.

سوف نحتاج إلى هذا النور الأعظم لبناء كل اجتهاداتنا السياسية والاقتصادية والتربوية على أساس متين توجّه حكيم لا يضل ولا يزيغ.

3. الركن الجهادي

الرسالة القرآنية رسالة ثورية انقلابية تحريرية جاءت لتحرير الإنسانية من عبادة الأصنام، وهي كل ما عُظّم سوى الله سبحانه وتعالى سواء أكان ذا صورة حسية وهيكل مادي مجسّد، أم كان وثنا لا هيئة له ولا صورة، ولكن له اعتبار التعظيم والتفخيم، وله استحقاق العبادة دون الله تعالى من قبل عابديه.

ولمّا كان الإنسان معرّضًا للشركين، الظاهر بعبادة الأصنام تأسيسًا للكفر والشرك، والخفي بعبادة الأوثان تأسيسًا للنفاق، فإنّ التوجيه القرآني جاء بالأمر بمجاهدة الكفار والمنافقين معًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة: 73]. ثمّ، وباعتبار خطورة هذا التوجيه، وتقديرًا لمدى أهميته وكونه الشرط العملي لتأسيس دولة الإسلام، كرّرت الآية في سورة «التحريم»: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾.

وعليه، وبمقتضى هذه الآية المكررة، توجبت التوبة والبراءة من الكفر والشرك، كما وجبت حرمة النفاق باعتباره المنهج العملي السلوكي المرتدّ إلى الأصول الكفرية الشركية يستمد منها وبها يستعين.

إنّ الجهاد باعتباره الكلمة الجامعة لكل معاني وترتيبات دفع المفسدة تهيئة لجلب المصلحة،هو الفعالية القرآنية العملية التي تمّ الأمر بها لتدمير دول الكفر والشرك والنفاق وإقامة الدولة الإسلامية المؤمنة المسلمة لربها المتبعة لشريعته وحده.

لذلك يؤكد القرآن الكريم على ضرورة التزام النهج الجهادي في مدافعة أنظمة الكفر والشرك والنفاق، وفي محاربة المنكر، ويجعل منه الجزء الثاني الأصيل من برنامج الدين الذي ينقسم إلى إيمان بالله تعالى لا شكّ فيه، وجهاد في سبيل إقامة شريعته فوق الأرض. يقول تعالى في محكم التنزيل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: 15].

ويرفض القرآن الكريم في المقابل، أيّ نوع من أنواع التديّن الذي يفصل بين الإيمان بالله والجهاد في سبيل إقامة شريعته. لذلك جاء بعد الآية التي أكدت على هذا المعنى مباشرة نعي على الذين أرادوا أن يفصلوا بين القضيتين، قضية الإيمان وقضية الجهاد، مضاهين قول اليهود والنصارى من قبل. يقول تعالى: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات: 16].

إنّ الاصطفاف للجهاد أخو الاصطفاف للصلاة، وهو أساس التجارة الرابحة المنجية من عذاب الله الأليم في الدنيا والآخرة. جاء في سورة الصف: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

إنّ الجهاد هو الخطّة العملية والسبيل الفعلية لمقاومة التحريفين الدينيين: التحريف الكتابي، والتحريف الجاهلي اللذيْن أدّيا إلى إقامة الدولتين: دولة الضلال العقلي (الشريعة العقلية) عند أهل الكتاب (اليهود والنصارى ومن والاهم)؛ ودولة الضلال النفسي (الشريعة الأهوائية) عند أهل الجاهلية (الجاهلية العربية ومن والاها). وفي جين أدّت الجاهلية الكتابية إلى تسميم نظام المعنى وتدميره بإقامة نظام الفهم على أساس الظنّ، فقد أدّت الجاهلية العربية إلى تسميم نظام السلوك بإقامته على أساس الفخر؛ فأخسرت الأولى ميزان الحق (العلم)، وأخسرت الثانية ميزان الأخلاق (التواضع)، جرّاء استكبار الأولى واتّضاع الثانية. لذلك حرّم القرآن الكريم التأسي باليهود والنصارى واتّباعهم واتخاذهم أولياء، كما حرّم التأسي بأخلاق الجاهلية معتبرًا كليهما حكما جاهليًا أهوائيًا إن تغيرت صورته الظاهرية فإنها لا تخفى على العليم الخبير.

إن الجاهلية العربية لتنجع كلما استفحل سلطانها على الأنفس، واستولى جيشها النفاقي المريض القلب، إلى اتّباع أهل الكتاب (اليهود و النصارى ومن والاهم)، باعتبارهم قِبلة العقل عندها وسادة العلم والمدنية، خضوعا من النفس الأمّارة بالسوء لكل ذي سلطان،

والتزامًا من «المَهين» بالسجود بين يدي «الشريف» ضمن عقيدة ظنية أهوائية أغرته بالوضاعة كما أعزت سيده بالرفعة و العلوّ.

ليس غريبًا أن تؤول الجاهلية العربية المعاصرة إلى نفس ما آلت إليه الجاهلية العربية بعد مرحلة الحنيفية الإبراهيمية وقبل البعثة المحمدية الأميّة من الخضوع لليهود والنصارى باعتبارهم سدنة أنظمة الأهواء وأعلام التحريف «الفلسفي» (المظنون عقليًا)، للدّين الحق.

باختصار مفيد، حرّم القرآن الكريم اتّباع اليهود والنصارى، واعتبر ذلك ردّة لا غبار عليها في نصّ محكم لا يقبل التأويل:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ٥٢ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ٥٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٥٦ ﴾ [المائدة].

إنّ الدولة الحقيقية هي الدّولة الغالبة لأنها قادرة على أن تظهر قيم وقناعات أفرادها، وأن تظهر فضائلهم، وأن تؤسس أركان عزّهم ودعائم كرامتهم. أمّا الدولة المغلوبة، فليست في الواقع دولة إلاّ من حيث الشّكل شأن دويلات العرب الجاهلية اليوم التي تعيش على فتات أفكار وقيم وخيرات دول اليهود والنّصارى لا ينفعها مع هذا الصّنيع أن تتسمّى باسم «الدولة الوطنية»، كما لا ينفع منافقيها أن يسمّوا اليهود والنّصارى «غربًا» تمويها بالأسماء وتعمية على المسمّيات.

4. الانتصار الكبير وبناء المدنية الأمية

القرآن الكريم والسنّة الشريفة اللذان يشكّلان نظام المشروع الأمّي الإلهي الخاتم، اندمجتا في شهادتين شهادة اعتقادية مضمونها «لا إله إلا الله»، وشهادة عملية تشريعية خُلقية مضمونها «محمد رسول الله». وبالتوحيد بين الشهادتين يتأسس دين الإسلام ويكتمل.

ويهدف دين الإسلام كما جاء في تعاليمه ثم كما جاء في التجربة الحضارية الإسلامية، إلى بناء المدنية الأمية القائمة على كلمة الله تعالى دون سواه، وفاء بواجب العبودية، والتزاما أمام الله بحقّ الألوهية في أن تُوَحّد في الواحد الأحد.

أمّا كون الرسالة القرآنية بنبيها الأمي ﷺ مؤسسة للمدنية الإنسانية، فبما دعت إليه من العمران الشامل والتأسيس الكامل لبنيان الإنسان والأمة على السّواء على تقوى من الله ورضوان، ولما جسّدته فعلا من مظاهر العمران ومن أسباب المدنية؛ ولما أظهرته تلك المدنية التي انطلقت بتأسيس الرسول ﷺ للمدينة وهجرته القصدية إليها، واعتبار تلك الهجرة بداية انطلاق التاريخ الإسلامي المتميّز ضمن تاريخ البشرية العامّ، من فضائل العمران حيث أظهر كلّ ذي فضل فضله، وتمّت نعمة الله تعالى على الجميع فلم يظلموا من نِعم الله شيئًا. واستطاعوا ليس فقط أن يقيموا شريعة الله وأن يحكموا بما أنزل، بل أن يزلزلوا عروش اليهود والنصارى ومن والاهم.

وأمّا كونها مدينة أميّة، فمن حيث قيامها على خطّ تجديدي، والتزامها بالتعليم القرآني الإلهي إيمانيًا (عقيدة التوحيد الخالص لله تعالى)، وعمليًا بإقامة شريعة الله والحكم بما أنزل ومحاربة كل الأهواء.

هذا،وكان من أهم توجيهات النبي الأمي ﷺ الدّعوة الدّائمة إلى مخالفة اليهود والنصارى سواء في اعتقاداتهم أو في سلوكهم وأعمالهم، لا بل حتى في شعائرهم وسيماهم الظاهرة.

قال ﷺ: «**خَالِفُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، فَإِنَّهُمْ لَا يُصَلُّونَ فِي خفافهم، ولا في نعالهم**»[1].

منصورا بالله تعالى، كان النبي الأمي محمّد ﷺ يبني فعلًا دولة الإيمان والإسلام ويسوسها بشريعة الرحمن، شريعة التوحيد سواء في وجهها السياسي أو الثقافي أو الاقتصادي مؤكّدًا أن التوحيد منهج شامل في الفهم وفي التطبيق على السواء، وأن الممارسة التوحيدية متميزة عن سائر أنواع التّصرفات والحركات.

ولأن التوحيد صبغة الله القاهرة باعتبارها أساس التنظيم الرحماني لنظام الخلق الكوني كما لنظام الأمر الشرعي، فقد كان من نافل القول أنّه لن يقبل بأيّ صورة من صور التهجين ولا الشرك، ناهيك عن التبعية والانقياد.

لذلك قاوم التوحيد الإسلامي بدع الجاهلية العربية الشركية رافضًا ادعاءها الظاهر بأنها تعبد الإله العظيم وتحج إليه، مستهينًا بما حافظت عليه من سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام. كما قاوم كفر اليهود والنصارى الذين لم يكتفوا بإفساد عقيدة التوحيد: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: 30]؛ فتنّوا باتخاذ شرائع وقوانين أسلافهم الرومان واليونان العريقين في الوثنية، فلم يؤمنوا بالله إلا وهم مشركون، وذلك ديدنهم إلى اليوم وإلى يوم يبعثون.

لم يكن غريبًا عندئذ، أن يتجاوز المشروع الأمي الإبراهيمي الشاهد بالحق (الإيمان)،

---

(1) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان - تحقيق شعيب الأرنؤوط - بيروت - مؤسسة الرسالة - ط1 – 1408 - ج5 - ص 561 - حديث رقم 561.
عَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**خَالِفُوا الْمُشْرِكِينَ: وَفِّرُوا اللِّحَى، وَأَحْفُوا الشَّوَارِبَ**». وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ: «**إِذَا حَجَّ أَوِ اعْتَمَرَ قَبَضَ عَلَى لِحْيَتِهِ، فَمَا فَضَلَ أَخَذَهُ**» صحيح البخاري، باب تقليم الأظفار - دار طوق النجاة - ط1 -2241هـ - ج7 - ص61 - حديث رقم 2985.

وبالعمل الصالح (الإسلام)، حدود القطرية والقبلية إلى كونية المشروع الحضاري الإنساني الذي حملته أمم عديدة فوق الأرض فكان أساسًا لتقدّمها وخروجها من الظلمات إلى النور. إنّ الخلافة الرّاشدة الأنموذجية، ثم الخلافة الأموية فالعباسية فالعثمانية، محطّات مركزية لتجلي مشروع الإسلام الكوني الذي شمل معظم بقاع الأرض ومازال يتطلّع إلى مزيد.

الفصل الثاني

تضامن الخطين:

الخط الكتابي والخط الجاهلي وعودة المشروع الظلامي (الكفر والنفاق)

نزل الكتاب السابق متمثلًا في التوراة والإنجيل خاصّة على بني إسرائيل الذين يعدّون صفوة المقصودين باسم أهل الكتاب، ثم توسع سلطانه وبحسب مسارات قدرية لتحمله أمة الرومان الوثنية بشرقها وغربها، ولتحمّله لمن والاها وسار على نهجها إمّا غصبًا في مستعمراتها، أو اختيارًا من قِبل من أصبح يعتقد أن التقدم والرقيّ عنوانه أمم النصارى، والتخلف والانحطاط عنوانه سائر الأمم الأخرى وعلى رأسها الأمة الأمية ممّن استعمر اليهود والنصارى عقولهم إضافة إلى بلدانهم.

إلاّ أنّ الأمتين قبلنا (اليهود والنّصارى)، ﴿وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ﴾ [المائدة: 13][1]، بعبارة القرآن الكريم، ونحسب أنه نسيان اليهود للعمل الصالح (الإسلام)، ونسيان النصّارى للتوحيد (الإيمان)، فأصبحتا بذلك المنظّرين الأكبرين للضلال في كل صوره. جاء في الكتاب العزيز: ﴿۞ وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: 12]. ذلك كان العهد من الله إليهم، وذلك كان العقد معهم، إلاّ أنّ بني إسرائيل كانوا أبعد الناس عن الوفاء بعهد، كما كانوا أسوأ من عقد عقدًا: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [المائدة: 13].

خانت بنو إسرائيل رسالة موسى، كما خانوا محمدًا ﷺ بعد ذلك في مواقع عديدة لعلّ أخطرها خيانة يوم الأحزاب (عزوة الخندق) رغم العهد والميثاق الذي أخذ عليهم.

وكذلك فعل الرومان الوثنيون الذين زعموا أنّهم تنصّروا وأصبحوا على دين عيسى عليه السلام. جاء فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا

(1) سورة المائدة : الآية 13 تعلقت باليهود والآية 14 تعلقت بالنصارى.

مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾ [المائدة: 14].

قدّم الله سبحانه برنامجه الهادي، ونزّل صراطه المستقيم وذكره الحكيم على اليهود والنّصارى ﴿ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾، ثم جاروا على الحظ الباقي بانقلابهم جميعًا وارتدادهم إلى الوثنية والشّرك: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٣٠ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: 30 - 31]. وبهذه الردّة التي لم تترك لهم من الكتاب إلاّ الاسم، أصبح أهل الكتاب سادة مشروع التضليل ودهاقين برنامج الحرب على دين الإسلام: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: 32].

وباتحاد مقصد الأمّتين من أهل الكتاب (اليهود والنّصارى)، وتواطئهم على الكفر والإلحاد، لم يكن غريبًا أن يتضامنوا على تدمير المدنية الإسلامية بكلّ الوسائل، وأن يسعوا بكل ما أوتوا إلى استرداد بيت المقدس استردادًا استعماريًا عنفيًا حربيًا بعد أن فشلوا في حمل رسالته الحضارية روحيًا وأخلاقيًا.

وعلى أعتاب الجغرافيا الكتابية، كان الأميون الذين نجع إليهم الكتاب السماوي وورثوا ميراث إبراهيم الخليل عليه السلام بمحض منّة الله تعالى وقدرته، يصنعون الرّدة ويتواطؤون على نور البيت العتيق ليحجبوا رسالته الهادية التوحيدية برسالة مزيّفة نفاقيّة جميلة الظاهر «عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج»، قبيحة الباطن المتمثل في التّخلي عن البرنامج الإلهي القرآني في مستوييه العقائدي (التوحيد)، والعملي (الشريعة)، والارتداد إلى إرث الجاهلية وبدعها وشركها وضلالها.

إنّ التّدين الأوليائي، والتّصوف البدعي، والسياسة الوضعية الاستبدادية، والأخلاق المنحطّة الأنانية، والثقافة الإغوائية، ليست سوى مظاهر فاجرة تكشف عورات الجاهلية الأميّة المعاصرة.

تضامن المشروع الكتّابي «اليهودي-النصراني» الذي ارتدّ إلى الأصول الكفرية الشركية لأمم أهل الكتاب وخاصّة إلى الأسلاف القدامى متمثلين خاصّة في اليونان القدامى بفلسفتهم الوضعية والرومان القدماء بقوانينهم الوضعية، بل إلى ما هو شرّ من ذلك، إلى عقائد الأرض الوثنية الشركية القديمة، مع المشروع الجاهلي الأميّ الجاهز دائما لإحكام سيطرته كلما غفلت الأمّة الأميّة عن تعاليم القرآن الكريم والسنة الشّريفة.

وهيّأ الاستعمار الحديث الفرصة لتزاوج الخطّين ،الخط الكتّابي بظنونه الفلسفية وأوهامه الحداثية التي تخفي وراءها أسوأ الأصول الكفرية فوق الأرض، والخطّ الجاهلي الأميّ الذي طالما أقرّ بسلطان أمم أهل الكتاب و«حفظ» لأهل الكتاب «حقّهم» في أن يسوسوه، وأن «يهدوه» إلى ما يظنه خيرًا ومصلحة.

ولـمّا كان طغيان مثل هذا المشروع الرّهيب لا يمكن أن يحصل إلاّ بتدمير كلّ آثار الكرامة والعزّة التي ورثها الأميّون وأصرتّ أمّة منهم على أن لا تفقدها، فقد كان من ضرورات الاستعمار أن يحتزم أهل الكتاب المستعمرون بأحزمة الحديد والنار لتأكيد سلطانهم «الغالب»، وكان من الضروري في المقابل أن يحتزم «أنذال» الأمة الأميّة بال«نفاق» دينا عقيدته الكفر وأخلاقه أخلاق الجاهلية بكل الغواية والفجور والجهالة التي تحملها.

وبصيرورة المشروع الكتّابي (اليهودي-النصراني) إلى نهاياته الكفرية الإلحادية، دمّرت الرسالة الكتّابية بالكامل، ولم يعد أمام أهل الكتاب سوى أن يعلنوا أنهم سيأخذون المسجد الأقصى (بيت المقدس)، بقوّة الحديد والنار، كاتمين بذلك أنفاس السلام التي طالما حملها

بعض قسّيسيهم ورهبانهم الذين لا يستكبرون، فكان ما رأينا ومازلنا نرى من تواطئهم يهودًا ونصارى لجعل بيت المقدس عاصمة لدولة إسرائيل الغاصبة.

أمّا المشروع الأميّ الجاهلي، فقد انتهى إلى فقدان آخر خطوط النور التي كانت تربطه بالدّين الحقّ، وانتهى إلى إحياء الديانة الجاهلية العربية المتمثلة في «سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام» باعتبارهما العملين الأكملين الشكليين اللذين لا يمكن تجاوزهما.

فلا إمكان للمنافقين على تجاوز أستار الكعبة الحرام وأحجارها بعد أن حيل بينهم وبين قلوبهم فلم يعد بإمكانهم أن يتجاوزوا أجسادهم إلى أرواحها.

تلك صنمية جديرة بمن مات قلبه وغاب روحه واندثر عقله، انقلب فيها معظم «علماء» الأمّة الأميّة «سدنة» و«رهبانًا» و«أحبارًا» يحكون شكلًا مظاهر العلماء كما يحكي شكلا سادتهم من «الكبراء» و«الملوك» صولة الحكّام و«بناة الدّول» و«صانعي الحضارات». ذلك أنّ منافقي الأمّة الأميّة وقد ارتدّوا، نسوا أنّ المسجد الحرام قبلة إلهية ونور سماوي يغيب ويظهر بحسب العزّة والتقدير الإلهيين القاهرين قبل أن يكون مكانًا محدودًا وحجرًا معدودًا بدليل أن الخالق جلّ وعلا جعله ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: 125]. كما جعله للناس ﴿سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ [الحج: 25]. فلم يفز أحد بحكمته ونوره وأمنه لأنه بالمكان دون سواه منه قريب، ولم يحرم أحد من فضائله تلك لأنه بالسكنى عنه بعيد.

وبخراب السيرتين، السيرة الكتابية التي آلت إلى المادية الكفرية الصّريحة، والسيرة الأميّة التي آلت إلى الجاهلية النفاقية الصّريحة، انهار البرنامج الديني وانتهى المشروع الإسلامي وكاد أن ينطفئ بفعل ضلالات وإجرام أهل الكتاب (اليهود والنّصارى)، وجهالات الأميين (العرب المعاصرين)، النورُ الإلهي المنزل لولا أن الله الكريم يأبى إلاّ أن يتم نوره ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [التوبة: 32]، ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: 33].

وفي ليل الجاهلية البهيم، نفخ الله تعالى في أرواح بريئة مؤمنة صادقة أميّة نور الهدى فتأسست الحركة الإخوانية السنّية لتصبح كيانًا جامعًا للتيار السني الجديد الجامع لخط

الإيمان والعمل الصالح (الجهاد)، والتي دفعت ومازالت تدفع بخيرة الرجال نحو ميادين المواجهة مع أقطاب الجاهلية وطواغيتها. حتى إذا استيأس البعيد والقريب وظنوا أنهم كذبوا جاء نصر الله تعالى الذي نفخ في أرواح ثلّة من شباب هذه الأمة روح الجهاد للطواغيت والجبابرة ودفعهم بعزّته إلى الثورة عليهم، ليدخل العالم بذلك وخصوصا المنطقة الأمية عهدا جديدا، إنّه عهد الثّورات الشعبية الحاملة لمشروع الحريّة.

الفصل الثالث

الثورة الشعبية ووعود الحرية

اندلعت الثورات الشعبية في المنطقة الأمية[1]، منطلقة من المغرب الإسلامي وبالتحديد من تونس (إفريقية) المباركة التي فتحها شباب الصحابة (العبادلة السبعة) منذ بواكير الإسلام

(1) المنطقة الأمية هي المنطقة العربية والأميون هم العرب الناطقون باللسان العربي، والقرآن الكريم لم يصفهم أبدًا ولم يسمّهم العرب بل سمّاهم الأميين ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: 2]. وقال تعالى ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: 20]. كما أنّ القرآن الكريم لم يسمّ النبي محمدًا ﷺ ولم يكنّه بالعربي فلم يقل النبي العربي بل قال « النبي الأمي كما في قوله تعالى ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: 158].

إنّ تسمية العرب بالأميين تعريف لهم بأخصّ خصائصهم النوعية ضمن الجنس البشري وتمييز لهم مقارنة بأهل الكتاب. فأهل الكتاب هم كل أولئك الذين اجتمعوا على فرع إسحق بن إبراهيم الخليل عليه السلام وهم بنوا إسرائيل ثم النصارى ومن اجتذبته الديانتان اليهودية والنصرانية المجتمع دينهما في مسمّى «الكتاب المقدّس» (التوراة والإنجيل). والأميّون هم فرع إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام الذي جذّر الله تعالى نسله في أرض العرب. وقد فضّل الله تعالى فرع اسحق بميزة العلم قال تعالى ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ [الذاريات: 28]. وقال: ﴿ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ [الحجر: 53]. أما فرع إسماعيل فقد فضّلهم الله تعالى بالحلم. قال تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات: 101]. وما بين الفرعين: فرع الغلام العليم وفرع الغلام الحليم سيقع سجال تاريخي قدري موضوعه ومحوره إرث إبراهيم الخليل عليه السلام الذي قال فيه الله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ [النساء: 54-55].

إنّ الصراع المحتدم إلى اليوم ضمن منطقة المسجد الأقصى (فلسطين) والمنطقة الحرام (البيت العتيق)، والذي يدور بين الأمتين لتكون الهيمنة على الأقصى من نصيب بني إسرائيل حال علوّهم، ومن نصيب الأميين حال إسلامهم، تكشف عن طبيعة الحراك التاريخي الذي يقاد بإرادة إلهية قاهرة إلى نهاياته، كما أنه يكشف في تفاصيله عن الحقائق الأساسية التي حتم الله ظهورها وقوانين النصر والهزيمة بحسب معيار العزل والتمكين الإلهيين، وبحسب ترتيب الله تعالى لرفعة ووضاعة كل من المؤمنين والكفار والمنافقين. «يراجع لفهم أوسع كتابي» انتصار الإنسان في القرآن الكريم قراءة تأويله في سورة يوسف عليه السلام»، وكتابي «نظرية السلطة في القرآن الكريم – الاستكبار والتمكين» . بيروت – مكتبة حسن العصرية- ط 1- 2009.

(سنة 27 للهجرة) لتكون مركزا لنشر الإسلام في قارة إفريقيا ومناطق عديدة من أوروبا. وكان من الواضح أنّ اندلاعها كان بسبب الظلم والاستبداد الواقع على الشعب الذي دُمّر لا بفعل ما يرتكبه المستبدّون من أبناء البلد الحاكمين فحسب، بل أيضًا بفعل الثقافة وديانة اللّهو واللّعب التي أصبحت الدّيانة البديل لدى الشعوب أهل الكتاب (الأوروبيين).

وبتواطئ المنافقين من أهل البلد والكافرين من أهل الكتاب (اليهود والنّصارى)، كانت المنطقة الأمية تدمّر تدميرًا منهجيًا رهيبًا لكيلا يكون للنّفَس القرآني المنزّل على النبي الأميّ ﷺ وللملّة الإبراهيمية الحنيفة أي وجود أو ظهور. ولكي يتم هذا المشروع كان لابدّ أن ترتدّ هذه الأمة الأميّة إلى مرحلة الجاهلية العربية بقبائلها المتنازعة المتخاصمة أبدًا، والتي ورثتها اليوم الدول القطرية العربية التي تجاوز عددها العشرين.

هذه الدويلات القطرية المحكومة بالأنظمة الاستعمارية، التي تحيا على هامش النظام الاستعماري العالمي في كل صيغه القانونية والاجتماعية والاقتصادية، والتي يحكمها طواغيت جبابرة لئن اختلفت تسمياتهم ما بين سلطان وملك ورئيس فإنهم يلتقون جميعا في كونهم مستبدين حاكمين بأمرهم لا بأمر الله ولا بأمر شعوبهم.

لكم نظّر أشباه المثقفين لهذه الدول القطرية باعتبارها دولا وطنية مؤسِّسة للنهضة ولقيام «أمة العرب» ما بعد العهد الاستعماري، إلاّ أنّ الواقع المتردّي الذي آلت إليه هذه البلدان والذي أدّى إلى اندلاع الثورات الشعبية، أكّد بما لا يدع مجالا للشكّ أنّ «العرب» لم يفعلوا سوى أن أعادوا صياغة إرثهم الجاهلي بعد أن حلّوه بأستار من أوهام الحداثة والتقدّم ومظاهر نفاقية عجيبة من التّدين الجاهلي الذي عنوانه أبدا: «سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام».

باندلاع الثورات الشعبية انطلاقًا من تونس، ثم مصر ثم ليبيا، ثم اشتعال نارها الحارقة في «بلاد الشام» حيث ضربت الجاهلية العربية البعثية عروقًا مدمّرة لعقيدة الإسلام ولشريعته في تلك الأرض الطيبة لتخنق جنبًا إلى جنب مع الدولة اليهودية الصهيونية أي رجاء في التحرر، ولتهوى براميل النفط المحرقة على كل أمل في تغيير ما بالأمة.

إنّ التقاء الجاهلية العربية البعثية بالتشيع الصفوي الفارسي الشعوبي المرتد القائم على احتقار الأميين والرغبة الدفينة في استعادة عزّ الساسانيين، بالبرنامج الاستعماري الكتابي المتواصل لتخريب مصائر الأميين، لجدير بأن يفضح كل شيء، وأن يظهر للعيان كل خيوط المؤامرة التدميرية التي تعرّضت لها المنطقة الأمية لكيلا تصبح من جديد منبتًا للمشروع الرسالي الإسلامي.

لكن، وبما أنّ المشروع التحريري للأمة الأميّة من أوضار النفاق الداخلي «ديانة عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج»، ومن سطوة الكفر الكتابي الخارجي، منّة إلهية أخرى ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه: 37]، على الأميين أتباع محمد ﷺ الذين بقيت منهم أمّة ثابتة على الحق، مجاهدة في سبيل دينها للكفار والمنافقين على السواء[1]، فإنّ ما نراه من عجيب فعال ائتلاف الشر النفاقي العربي الجاهلي، والبدعي الساساني الفارسي، والكفري الكتابي اليهودي النصراني، في بلاد الشام والعراق ومصر، سيكون بإذن الله تعالى آخر بلاءات التطهّر الذي يجب أن يدفعه الأميون من دمائهم لكي تستعيد هذه المنطقة الطاهرة بالأصالة، المليئة بالأوضار والرجس بالتبعية، نقاءها وصفاء سريرتها. إنه الفصد ثم الكيّ رغم أن النبي الأمي عليه السلام قد نبّه إلى أنه لا يحبّه لأمته[2]، ولكن أليس قد ألجؤوا أنفسهم إليه؟

---

(1) الحديث: حَدّثَنَا سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ، وَأَبُو الرّبِيعِ الْعَتَكِيّ، وَقُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، قَالُوا: حَدّثَنَا حَمّادٌ وَهُوَ ابْنُ زَيْدٍ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ أَبِي قِلَابَةَ، عَنْ أَبِي أَسْمَاءَ، عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقّ، لَا يَضُرّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ**»، وَلَيْسَ فِي حَدِيثِ قُتَيْبَةَ: وَهُمْ كَذَلِكَ. صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ج3، ص 1523، حديث رقم 1920.

(2) الحديث: حَدّثَنِي مُحَمّدُ بْنُ عَبْدِ الرّحِيمِ، أَخْبَرَنَا سُرَيْجُ بْنُ يُونُسَ أَبُو الحَارِثِ، حَدّثَنَا مَرْوَانُ بْنُ شُجَاعٍ، عَنْ سَالِمٍ الأَفْطَسِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ، عَنِ النّبِيّ ﷺ قَالَ: «**الشّفَاءُ فِي ثَلاَثَةٍ: فِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ، أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ، أَوْ كَيّةٍ بِنَارٍ، وَأَنَا أَنْهَى أُمّتِي عَنِ الكَيّ**»، صحيح البخاري، طبعة دارطوق النجاة، 2241هـ ، ج7، ص 321، حديث رقم 1865.

اليوم، تحدث الردّة تلو الرّدة، ويشتعل لهيب الثورة المباركة في هذا البلد أو ذلك من بلدان المنطقة الأمية، وتسعى قوى الشّر التي ذكرنا آنفا إلى إطفائه وسحق أنفاس الثوريين بكل الوسائل والأساليب الظاهرة والخفية، ويستميت المنافقون في الدّاخل إلى الدرجة التي يلبسون فيها لباس الثوريين ويزعمون أنهم هم الذين استنهضوا الناس للثورة، بل إلى الدرجة التي يظهر فيها من وجوه النفاق الكاذب من يزعم أنه ضحيّة الاستبداد ولم يكن في الحقيقة سوى أحد أركانه ومناصري سلطانه ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: 1][1]. ورغم كل ما يحدث من تدافع رهيب فإنّ شعار «الشعب يريد» لا يليث أن يرتفع من جديد ترفعه حناجر المستضعفين المصرّين أبدًا على الوصول إلى أهدافهم التي سيحققها الله تعالى لهم بعزّ عزيز أو بذل ذليل.

«الشعب يريد» تحديد من الشعب لهويته، واستنهاض منه لإرادته، ووعي منه بوجوده وكينونته. ولا وجود ولا كينونة خارج الإرادة. لأن الإرادة هي الفعل الكاشف عن الحياة والحيوية والنشاط تماما مثل دلالة حياة الجسد وحركته على وجود الروح فيه.

«الشعب يريد»، وأوّل ما يريده الشعب «إسقاط النظام»، نظام ماذا ؟ إنّه نظام النفاق والكفر الجامعين لكل شرور بني الإنسان وأنانيتهم واستكبارهم وإجرامهم مفصّلة في نظام رهيب من القوانين الإجرامية الكاتمة لأنفاس الحرية.

نظام الحزب الواحد سياسيًا الذي ليس سوى ميليشيا تابعة «للحاكم» الذي ليس في الحقيقة أيضًا سوى «مجرم» سفّاح جاهل، فرعون،لا يؤمن إلا بالشعار الفرعوني الذي مضمونه ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: 29][2].

---

(1) ففي تونس مثلا، رجع زعماء العهد البائد ليحققوا «أهداف الثورة» بحسب زعمهم، وظهرت ما يسمى بـ«هيئة تحقيق أهداف الثورة والانتقال الديمقراطي» لتدعي ظاهرا مناصرتها للثورة، ولتُعمل في الباطن خناجرها المسمومة فيها.

(2) ليس بورقيبة الذي طوّر فكرة ما سماه بنفسه أو سماه أتباعه « البورقيبية»، ومن بعده ابنه الشرعي نفاقيا زين العابدين بن علي، وكذلك معمر القذافي الابن الشرعي نفاقيا لجمال عبد الناصر، وقادة

ثم هو نظام الاستغلال الربوي المالي اقتصاديًا ولا غرابة، فاقتصاد دول الهامش الاستعماري لن يكون بالضرورة إلاّ المجال التّابع للاقتصاد الربوي الرأسمالي مضافًا إليه هوامش النذالة النفاقية والوضاعة العربية الجاهلية في غورها على الأخ وأكله إن لم تجد لجوعها الرهيب ولظمئها الغريب في صحراء العطش العربية ما يسدّه، شعارها : «وأحيانًا على بكر أخينا، إن لم نجد إلا أخانا»[1].

نظام يأبى في وجهه الاجتماعي على الأخ أن يعانق أخاه أو أن يصافحه إلاّ إن كان ذلك لاقتراف خيانة أو لفعل إجرام أو مقارفة شر؛ وعلى هذا المستوى فقد أبدع النظام العربي المقبور بإذن الله، في قتل أنفاس الأخوّة الإيمانية الضّعيفة أصلًا، بل الأخوة الإنسانية أيضًا إلى الدرجة التي استبدل معها الدماء التي تسيل في العروق بدماء النفاق الأصفر البغيض[2].

نظام احتزم «بإكليروس» ديني عربي هو أسوأ من «الإكليروس النصراني» متمثلًا في مشائخ السوء وجوقات «الفرق الطرقية»، ووزارات «الدين العربي» المعلّم بشرائع الطواغيت والجبابرة والذي لا يصنع صباحًا مساءً سوى تعبيد العبيد لفراعنتهم الجدد ورثة الاستعمار وصنائع نعمته.

هو ذا النظام القاتل للروح الأمية الذي لم يترك للإنسان العربي سوى جسده ليمارس

حزب البعث في سوريا والعراق، وغيرهم من ملوك العرب المعاصرين الذين يعدّون نابتة الاستعمار عن جدارة، سوى صور لهياكل الدمار، وآلات لفعل التدمير النفاقي الكفري؛ ولا حاجة للحاج والمعاندة في حقيقة هؤلاء، فإن الثورة الأمية اليوم ما قامت إلا لتدفن تاريخهم المظلم وتدفع به إلى أعماق سقر وبئس المصير.

(1) البيت للشاعر القطامي التغلبي. شاعر من تغلب يلقب بصريع الغواني. ذكر أنه توفي سنة 101 هـ.

(2) يراجع للتعمق في معنى النفاق وآثاره المدمّرة على الشعوب كتابنا «انهيار الإنسان في القرآن الكريم: دراسة في النفاق»، ضمن سلسلة تأسيس البنيان، لبنان، مكتبة حسن سعد العصرية، بيروت، ط1، 2009.

عليه كل فظاعاته وإكراهاته، ولم يترك للسان العربي سوى ترهاته وأشعاره الجاهلية لكي يمدح به «ملوك السوء» و«رؤساء الشر» بعد أن حال بينه وبين قرآنه. هذا النظام الواحد في أفعاله وأقواله وصفاته، في تجليات أمراضه الدنيوية والدينية، في شنيع صنعه بالإنسان بعد أن ضمّ رذائل الكفر والنفاق معًا، هو الذي ثار الإنسان الأمي من أجل إسقاطه. ومن نجد إلى يمن إلى الشام وبغداد، يثور هذا الشعار ويزداد مضاء ورسوخًا، في حين يزداد النظام العربي ترنّحًا، ويؤول بسرعة رهيبة إلي نهاياته واندثاره.

«الشعب يريد إسقاط النظام»، شعار الثورة الشعبية الأمية استعادة للكيان، كيان الإنسان الذي يتحرر الآن من كل الكوابت وكل السلطات وكل أنواع العفن والمتعفنين الذين أتجهم النظام المريض من أخمص قدميه إلى سويداء قلبه.

لذلك يتبين لنا مجموعة من الحقائق حول الثورة الشعبية الأمية نريد أن نثبتها ونجملها بدون تطويل:

أولاً: الثورة الشعبية الأمية ثورة إنسانية يفجرها إنسان رافض لنظام الاستعباد الذي طال ذاته وكيانه وعقيدته؛ إنها ثورة الإنسان الذي حيل بينه وبين إنسانيته وأكره على أن يحيا حياة الأنعام[1].

وبهذا المعنى هي ثورة من أجل الحرية، التي لا يمكن لإنسانية الإنسان أن تتحقق بدونها. فالإنسان لا يكون إنسانًا بدون الحرية، وهذا مما لا يخالف فيه سوى الطواغيت والجبابرة. وهي تستمد عنفوانها وقوّتها الشرعية من مدى الاستعباد والتدمير الذي طال إنسانية الإنسان في هذه المنطقة.

إنّ الحرية هي المطلب الأعلى والسقف الأرفع الذي تتطلع إليه هذه الثورة لأن جماهير

(1) ما أسوأ ما فعل القذافي بأهل ليبيا مثلا حيث جعل منهم أنعامًا تساق بالسياط، ليس لها من حق سوى نصيب من «القوت» تُمكّن منه في كل شهر بواسطة «كتيّب» تثبت فيه لكل أسرة نصيبها من الأرز والزيت.. فأيّ دمار.

الأنعام إذا ثارت فلكي تخرج من الإسطبل الذي فرض عليها البقاء فيه محبوسة ممنوعة مصدودة عن مراعي الخير والحياة. ومن حيث هو طالب للحرية، فان نوع الإنسان واحد على هذا المستوى لا يختلف فقيره عن غنيه ولا مؤمنه عن فاجره، ولا عالمه عن جاهله، ولا شاكره عن كافره؛ وتلك سنة الله تعالى الذي أودع في صميم فطرة الإنسان طلب الحرية والانعتاق ورفض العبودية.

ثانيًا: ثورة الحرية منتصرة لا محالة في هذه المنطقة بحسب سنة إلهية لا تخلّ، حيث قضى الله بأن يغير ما بالأقوام إذا غيروا ما بأنفسهم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11]، وإن طلب الإنسان للحرية يخرجه من حياة الأنعام ويميز طبعه الخاص عن طبعها، وهذا قدر إلهي عام فاض تاريخ الإنسانية ببيان صدقه.

إن طلب الحرية هو الرعد الهادر المنتج للكهرباء اللازمة «البرق» التي ستحيي الإنسان الميت حال كونه كائنًا أنعاميًا ماتت فيه روح الإنسانية بفعل شتى الديانات الصنمية. إن الصنم الطاغوتي المستعلي لا يعبده سوى كائنات متحجرة ذليلة لا قدرة لها على حياة أو حركة، ولا نور في أعينها تبصر به حقيقة ما تعبد. إن ما اعترى بعض العرب اليوم من يأس من الثورات العربية لا يعتبر في الحقيقة سوى عن روح انهزامية جاهلة بحقائق التاريخ. وهؤلاء إن كان بعضهم يتأسف حقًا لما يرى من مظاهر الردة والثورات المضادة، فإن بعضهم الآخر هم إمّا من الأنعام التي تعودت على الحياة الأنعامية «الهانئة» بحسب زعمهم، أو من المنافقين الذين يحنّون إلى استعادة نظام الردة النفاقية والذين يئسوا من أن يوجد لما ران على قلوبهم دواء.

ثالثًا: بثورة الإنسان على وجوده الأنعامي الحيواني، وطلبه لكونه الإنساني، يؤكد هذا المخلوق أنه يطلب استعادة فطرته الإنسانية السليمة الحقيقية التي فطر الله الناس عليها ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الروم: 30].

إن الحرية هي القاعدة الأساسية التي انبنت عليها الفطرة الإنسانية، ولذلك فحالما يسترد

الإنسان حريته يسترد أيضًا كرامته المهدورة التي هي من صميم فطرته الإنسانية أيضًا. قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء: 70]. إنّ إعلان الحرية إعلان لظهور الكائن المكرم فوق الأرض، وهو الإنسان المؤهل عندئذ للمهمة الإنسانية العظمى المتمثلة في الخلافة: خلافة الله تعالى في الأرض.

قال تعالى لبني إسرائيل واعدًا بنجاتهم من فرعون: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: 129].

فالكرامة الإنسانية إذا ثمرة للحرية الإنسانية التي هي ثمرة الثورة الشعبية؛ ولو عمقنا البحث لوجدنا أن ثورة الكرامة التي يفجرها الإنسان هي في الحقيقة والواقع داخل نفسه وفي أعماق كيانه أكثر من كونها خارج هذا الكيان. وهي ثورة على الوجه الأول من الطغيان متمثلًا في الطغيان الشيطاني. إنّ الشيطان الرّجيم الذي أغرى الطّواغيت بالكبر والاستعلاء،هو نفسه الذي أغرى ضعفاء البشر بالذل والتبعية والتّعبد للطواغيت. وفي كلتا الحالتين فإنّ الإنسان يظلم نفسه بنفسه، هذا باستكباره، وهذا بخضوعه للمستكبرين.

1. الدّولة الإسلامية ضرورة تاريخية

لئن كان نيل الحرية واستعادة الإنسان لكرامته شرطا ضروريا لانقلابه كائنًا مستخلفًا بعد أن كان مجرّد عبد تابع للعبيد، فليس معنى ذلك أنه قد أنهى مهمته فوق الأرض بالقضاء على شيطان ذلّه (الطاغوت الشيطاني)[1]، إنه مطالب وقد أصبح حرIW بأن يقاتل الطاغوت الإنساني المتمثل في نظام الاستبداد الذي تسير على أساس منه الدولة المستبدّة.

---

(1) قال الشيطان للإنسان لـمّا أجبر على إعلان حقيقة دوره مع بني الإنسان.. ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم: 25].

فمنذ أن انتهى عهد القرى[1] الذي كان في سمته الغالبة عهدا قبليّا انتظم فيه الاجتماع الإنساني ضمن ترتيبات الهيئات القبلية وعاداتها وتقاليدها وأنماط حياتها، وكانت نهاية هذا العهد بمجيء موسى عليه السلام، انتقل المشروع التنويري الرسالي الإلهي من كونه جملة نصائح بسيطة مع بعض التعليمات المحدودة للقبائل الضالة، إلى مرحلة تقديم شريعة كاملة من أجل بناء الدولة المسلمة وجعلها الكيان الحافظ والمستأمن على برنامج خلافة الله في الأرض.

وكانت التجربة الإسرائيلية الأولى في بناء دولة الشّريعة بواسطة الأنبياء الملوك بعد خروج بني إسرائيل من مصر وعودتهم إلى الأرض التي كتب الله تعالى لهم في ميعادهم الأوّل.هذه التجربة الإسرائيلية كانت محط اهتمام القرآن الكريم الذي أطنب في بيان حقائقها وأبعادها واستوفى الكلام عنها منذ نشوئها إلى يوم انهيارها. ولم يكن هذا الاهتمام الكبير بالتجربة الأولى «لدولة الشريعة» عبثًا، حاش لله، بل كان من أجل بيان حقيقة الدولة الإسلامية التي ستصبح منذ ذلك التاريخ الحافظ الحقيقي للشريعة، والضامن الحقيقي لتحقيق كلمة الله تعالى وإعلان سلطان شريعته فوق الأرض.

إنّ شريعة التوراة التي قال فيها الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: 44]، تمثّل الشريعة الأولى المكتملة التي نزلت من السماء والتي كان الهدف من تنزيلها تقديم نظام إلهي مكتمل في الحكم ينظم أعمال الدولة الإسلامية ويوجّه كامل مساراتها التّعميرية والجهادية... يقول تعالى: ﴿ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ

(1) القرى هي تلك القبائل القديمة الظالمة لنفسها من عهد نوح عليه السلام إلى إرسال موسى عليه السلام كعاد وثمود ومدين وقوم لوط الذين أرسل الله تعالى إليهم أنبياء (أنبياء القرى هود- صالح- شعيب - لوط..) لهدايتهم فأبوا في معظمهم إلاّ أن يكفروا فعاقبهم الله بسحقهم في الدّنيا وتوعّدهم بعذاب الآخرة.

فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الرعد: 45].

هذه الدّقة التشريعية الإلهية المعجزة القائمة على مبدأ القصاص العادل، الضامنة لمبدأي العدل والفضل معًا، ليست دالة على تفاصيل الحكم الإلهي فقط في عموم النفس وأعضائها، بل أيضًا على أنّ الله سبحانه قد أنزل نظام حكم شامل كامل ينظم ويوجّه مسارات الجهد الإنساني فوق الأرض. وبنزول شريعة التوراة المقدّسة، انتقلت رسالة الدّين من كونها رسالة فردية إلى كونها رسالة أممية، وتجاوزت حدود الفرد إلى الجماعة. ذلك أنّ المقصود والمخاطب في قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ عموم الجماعة الإسلامية؛ إذ ليس من المعقول أن يطلب من الفرد أن يقيم الأحكام التي لا تقوم بها سوى دولة ذات ملك وسلطان.

إنّ الدّولة منذئذ أصبحت الضّامن الرّئيس لإقامة شريعة الله في عمومها وتفاصيلها. وإذا كان من واجب الفرد أن يطبّق شيئًا من هذه الشّريعة كالصلاة مثلًا باعتبارها عملًا فرديًا وتقرّبًا عباديًا شخصيًا، فليس من دوره وحده أن يقوم بإقامة الحدود وتنظيم الجهد الاقتصادي للجماعة (إيتاء الزّكاة)... إلا ضمن حدود المساهمة الفرديّة في الحراك الجماعي ككل.

إنّ الالتزام بأمر الله أصبح منذ نزول التوراة شأنًا جماعيًا أكثر من كونه شأنًا فرديّا، دليل ذلك أنّ القرآن الكريم وجّه خطابه التّشريعي إلى بني إسرائيل كجماعة مؤمنة متضامنة، كما وجّه إليهم بعد ذلك نقده وتوبيخه وتوعّدهم بعقابه كجماعة وليس كأفراد.

إنّ الفشل الإسرائيلي في إقامة «دولة الشريعة الإلهية التوراتية»، فشل أمّة (أبناء يعقوب وسلالة الأسباط)، وليس فشل أفراد. وهذا التّنبيه الذي يغفل عنه الكثيرون

سواء من المفسّرين أو من الدّارسين جدير بأن يعطى الأهمية القصوى لفهم التجربة الإسرائيلية ومن ثَمّ لفهم نظام الوحي السماوي ككل.

صحيح أنّ القرآن الكريم يستثني من بني إسرئيل الذين ثبت بعد التجربة فشلهم الذريع في إقامة دولة على أساس من قانون الله وناموسه، أمّة، أي جماعة قليلة قال فيهم: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: 159]؛ إلاّ أن هذه الجماعة القليلة كانت دومًا قلّة مهمّشة لا رأي لها ولا سلطان رغم تقواها وإيمانها، وهي في حدّ ذاتها دليل على أنّه لا يُعتدّ في مسار التاريخ بالقلّة مهما كانت تقواها إذا كانت الكثرة الغالبة كافرة متعنتة.

وبانهيار التجربة الإسرائيلية متمثّلة خاصّة في فشل بني إسرائيل الذريع في إقامة «الدولة الإسلامية»، بارتداد شعب إسرائيل إلى شريعة الهوى وإلى شرائع الأمم الكافرة ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: 30]، سامهم الله تعالى سوء العذاب، وسلّط عليهم دول القهر والغلبة، فشتّتهم البابليون في خراب أوّل، ثم دمّرهم الرومان الوثنيون في خراب ثان، وقضى الله تعالى بشتاتهم ولعنتهم بعد أن استعصوا على أنبيائهم وملوكهم المسلمين.

ولكي تكون لله تعالى الحجة البالغة، أضاف إلى الكتاب التوراتي القائم على إحكام مبدأ العدل ومقابلة الإحسان بالإحسان والجزاء من جنس العمل ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: 146]. لـمّا فضّل بنو إسرائيل الحياة الأهوائية الأنعامية على الانتظام الشرعي الإنساني المكـرّم، كتابا تبيّن فيه فضله سبحانه وأنّه لا يمنّ مرة واحدة بل المرّة تلو المرّة، ذلك هو الإنجيل برسوله عيسى بن مريم عليه السلام. قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: 46 - 47].

نزل الإنجيل إذن بشريعة مخففة: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [ال عمران: 50]. وانضمّ إلى بني إسرائيل في البلاء به أمة الرومان الوثنيين الذين قالوا إنّا نصارى بعد أن قاوموا المسيحية فاستعصت عليهم بتأييد الله تعالى لمن آمن بعيسى بن مريم عليه السلام. إلاّ أنّ أهل الإنجيل من كلا الفريقين لم يحكم بما أنزل الله تعالى فيه، فكفر به بنو إسرائيل جملة، وفسق عن هداه الذين قالوا إنّا نصارى. اكتمل الكتاب التشريعي الإلهي إذن بالعدل ضمن شريعة التوراة، وبالفضل ضمن التّكملة الإنجيلية المقدّسة. إلاّ أنّه لاقي كفرًا بالعدل من قبل بني إسرائيل، وفسقًا عن الفضل لدى المتمسحين بالنّصرانية. وفي كلا الحالين، حال الكفر وحال الفسق، لم يكن المقصود الضلال عن التطبيق الفردي للأمر الإلهي، ففي أمم أهل الكتاب أمة مقتصدة قائمة بأمر الله تعالى على المستوى الفردي، بل كان النقد مثلما كان التوجيه قبله للأكثرية الغالبة المأمورة بالشريعة، أي بإقامة الدولة الإسلامية. قال تعالى: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 66].

إنّ الدّارس للقرآن الكريم يلاحظ أنّ الانتقاد الإلهي لأهل الكتاب (يهودًا ونصارى)، لئن كان متوجها إلى ضلالاتهم الاعتقادية خاصة في سورة آل عمران، فلقد توجّه إلى ضلالهم عن الشريعة الإلهية في سورة المائدة.

وحيث لغوا في ذات الله تعالى فجعلوا له الشركاء اعتقادا، فقد كان لابدّ أن يقعوا في الضلال عمليا، وأن يضيعوا شريعة الله التي نزلت بالعدل والفضل في قسمته لمائدته سبحانه، أي لحظوظ الناس وأقسامهم.

وحيث آل أهل الكتاب إلى الخسران المبين، وارتفعت كلمة الله تعالى بارتفاع عيسى بن مريم عليه السلام جسدًا وروحًا في حرمان إلهي قاهر عزيز لأهل الكفر والفسوق المضيعين لشريعة الله، آذن عهد أحمد الأمي ﷺ الذي جاء عيسى بن مريم عليه السلام مبشّرًا به والذي كتب اسمه في التوراة والإنجيل بالظهور. ونزل القرآن الكريم قارنا بين

عدل الإله وفضله، فصدّق التوراة والإنجيل كليهما، وهيمن عليهما بروح الجمع الغالبة: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: 50].

انقلبت التجربة الكتابية بفرعيها الإسرائيلي والنصراني، وانصاعت لهوى مضلّ بعد أن أريد لها أن تكون على هدى ونور، وما ذلك إلاّ لأنّ أهل الكتاب: ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ [المائدة: 13][1]، ولبّسوا الحق بالباطل وحرّفوا الكلم عن مواضعه.»وحكّموا الهوى حيث لا حكم إلاّ لله: ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ﴾ [المائدة: 41]. وبذلك أصبح أهل الكتاب ومن والاهم ممن قالوا: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ [المائدة: 41][2]. سمّاعين للكذب أكّالين للسّحت، فجاسوا خلال الحرام بعد أن جاسوا خلال الباطل.

ولمّا كان المراد أن تصبح الشريعة القرآنية شريعة إنسانية عالمية تستوعب شعوب الأرض قاطبة، فقد كان من الضروري أن تحافظ على المبدأ الإلهي الاعتقادي وهو الإيمان بوحدانية الله فقط. قال تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: 49 – 50].

إنّ الحكم بما انزل الله دون الإلحاد فيه بإنكاره، أو الشّرك فيه بخلطه بأحكام أخرى غريبة عنه، أو الظلم فيه باستعباد بعض من أجزائه، أساس إقامة شريعة الله تعالى فوق

(1) جاء هذا القول في بني إسرائيل وفي الذين قالوا إنا نصارى معا فانتبه.

(2) هذا الوصف مناسب تمامًا للمنافقين العرب في عصر النبي ﷺ وفي كل عصر.

الأرض وشرط شروطها. ولا حكم إلاّ بالدولة وشوكتها وسلطانها. فلا سبيل إلى الفصل بين الأحكام ونظام إقامتها لأنّ ذلك سيكون كالفصل بين وجود الشيء وعلة وجوده.

إن أي قراءة للدّين تتغافل عن دور الدولة في إقامته، بل عن قيمته إقامة «الدولة الإسلامية» باعتبارها الدولة الضامنة لإقامة الشريعة المطهّرة، سوف تقع في تزييف رسالة الدين، وتؤول إلى تضييعها تمامًا مثلما ضيّع اليهود ومن بعدهم النّصارى كلمة الله وشريعته التي نزّل عليهم.

ولكي نعي القيمة العظمى لإقامة الدولة الإسلامية الضامنة وحدها لإقامة الشريعة الإسلامية علينا أن نعرف على وجه دقيق وعميق معنى الشّريعة.

2. الشريعة الإسلامية

الدين الإسلامي الإلهي عقيدة وشريعة. عقيدة من حيث هو إيمان بالحقائق الأساسية الوجودية التي تبني العقل الإنساني، وتهدي الإنسان إلى معرفة حقيقة الحياة ككل، وحقيقته هو على وجه التخصيص. وهو كذلك شريعة جامعة لكل أنشطة الإنسان المؤمن الذي طولب بأن يعمل صالحًا ما بين حياته ومماته.إنّ الإسلام هو العنصر الثاني في الدّين بعد الإيمان، وإنّ الإحسان ليس إلاّ حسن الجمع والتوحيد بين الإيمان والإسلام.

وإذا كان الإيمان جملة اعتقادات، فإنّ الإسلام جملة تصرّفات وأعمال. فكل الأوامر العملية التي ينشط لها الإنسان بجسده وسائر قواه الحسيّة تدخل تحت أحكام الشريعة الإسلامية. وباعتبار الإنسان فردا يحيا ضمن جماعة، فإنّ الشّريعة جاءت بنظام جامع للفردية والجماعية على السواء.

إنّ الصلاة مثلا وهي عبادة فردية في جوهرها باعتبارها اتصالًا روحيًا بالله تعالى لا تكاد تنضبط للفرد إلاّ ضمن الجماعة، ومن خلال المؤسسة الجامعة للمسلمين في صلواتهم وهي المسجد الجامع، بل إنّ صلاة هي فرض عين على المسلم البالغ العاقل الذكر وهي

صلاة الجمعة، لا تصلّى إلاّ في جماعة وداخل أروقة المسجد. وهكذا بعض الصلوات الجماعية المسنونة على وجه التأكيد أو على وجه الاستحباب كصلاة العيدين وصلاة التراويح والاستسقاء والكسوف وغيرها.. هذا وإنّ الأذان الدّاعي إلى الصلوات الخمس لِمن السّنن العظام ومن أخصّ شعائر الإسلام. فإذا انتقلنا إلى الزّكاة، فإننا عندئذ أمام النظام الاقتصادي الإسلامي برمّته، نظام مكتمل قائم على بيان الخطوط الأساسية في المعاملات المالية، والموازنة الدّقيقة بين المؤسسات الربحية التي هدفها إيجاد وتنمية رأس المال وتنظيم البيع، والمؤسسات غير الربحية التي مهمتها حسن تصريف المال والعدل في توزيعه، وضمان الحق المعلوم للسائل والمحروم. وكما نظّمت الشريعة الإسلامية المبادئ الكبرى للمعاملات المالية ولكل نظام التجارة والمرابحة عبر تحريم الربا وتحليل البيع، وبيان أنواعه ما يجوز منه وما لا يجوز، نظمت كذلك المقاصد الكبرى وأخلاقيات سوق المال والمعاملة، وكان شعار: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: 7]، آية قاطعة في تحريم كل أشكال الأنانية والرّغبات المستعرّة في الاستئثار بالمال وتوظيفه من أجل تحقيق المصلحة الشّخصية فقط.

وغير بعيد من تشريع الزّكاة تشريع الصوم الذّي لئن كان تجلّي الفردية فيه أكبر، إلاّ أنّ مقاصده لا تخلو أبدًا من الجوانب الاجتماعية والأهداف العليا الإنسانية العمومية. فالصوم مبدأ لتأسيس مشاعر التّضامن بين الفقير والغنيّ، وعبادة تحيي روح التّراحم ومشاعر التّعاطف والمؤازرة. ثم إنّ الشّهر الكريم الذي يحييه المؤمنون كل ليلة جماعة كما تعوّدوا دائمًا، لا ينتهي ولا يُنال أجره إلاّ بتقديم صدقة تؤخذ من الأغنياء وتردّ على الفقراء، تلك زكاة الفطر.

ويأتي الحج كصراط مستقيم للسّير على درب إبراهيم الخليل عليه السّلام وإحياء لملّته الحنيفية تأسيًا برسول الله ﷺ، ليكون في الوقت نفسه مؤتمرًا عالميًا يحيي عالمية الإسلام ويؤكّد أبعاده وبرنامجه الكوني.

تلك أصول الشريعة مجموعة في أركان الإسلام الخمسة المتضامنة مع أركان الإيمان الستّة لتكميل الدّين والوفاء ببرنامجه في تأسيس بنيان الفرد والأمة. وهي كما ترى عبادات ومعاملات لا ينفصل بعضها عن البعض الآخر، كما لا ينفصل جانبها الفردي عن جانبها الجماعي.إنّها باختصار شريعة التّوحيد.

إنّ الشريعة لئن كانت جامعة لمطالب الفرد والأمّة معًا، فإنّها أيضا شاملة لكل القضايا ولكافة مواضيع الحياة، متدخّلة بالمنهاج القرآني في كل تفاصيل وعمومات الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية والسّياسية والتّربوية. وباختصار، إنّ الشريعة الإسلامية تمثّل نظام سياسة الإنسان في معاشه ما بين حياته وموته لكي يتم بالكيفية التي ترجعه إلى ربّه راضيًا مرضيّا، وهي كذلك سياسة الأمة في كل شؤونها ما جلّ منها وما صغر لتجثو بين يدي ربّها حاملة كتابًا كريمًا موسومًا بالرضا الإلهي يوم تجثو الأمم للواحد القهّار.

وهي ضمن المنهاج النّبوي والسيرة الأمية الشّريفة كل تلك المرحلة المدنية العظيمة التي قادها الرسول ﷺ إمامًا، رئيسًا، حاكما، قاضيًا ومجاهدًا وداعيًا إلى ربّه يهديه القرآن الكريم وتحفظه الآيات البيّنات.

فما بين الشّريعة والعقيدة نفس ما بين المرحلة المدنية والمرحلة المكّية في السيرة النبوية من ترابط واندماج.

إنّ الشريعة الأميّة الأخيرة الجامعة لفضائل كل الشرائع الإلهية السّابقة، والمنهاج الإلهي القرآني التوحيدي الجامع، تمّت بهما الهيمنة بالحقّ على نظام العمل وتوجيهه ليكون ضمن التّعليمات والحدود الإلهية.

وحيث اكتمل الدّين بالإيمان الباهر والشّرع القاهر، فقد أصبح ما سواه هوى مهما كان مستنده ومرجعه. قال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الجاثية: 17 - 18]. ثم أردف وقد توقع ضلال الضالين وزيغ الزّائغين عن هذه الحقيقة

الباهرة: ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية: 20]. وقد أثر عن النبي الأميّ عليه الصّلاة والسّلام قوله: «**وَالّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلّا أَنْ يَتّبِعَنِي**»[1]. هذا شأن موسى صاحب الشريعة التّوراتية التي قال فيها الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ.. ﴾ [المائدة: 44]، فكيف بأقوال وتشريعات وأحكام البشر الآخرين ممّن ليس بنبيّ بل ممّن لا يؤمن بالأنبياء عليهم السّلام ولا بربّهم الذي أنزلهم.

إنّ السّياسة الشّرعية باب أساسي من أبواب التّشريع بما يعنيه من تنظيم الحكم وترتيب أحكامه ضمن مقاصد الدّين الأساسية، وأحكام الشريعة الإسلامية في هذا الباب لا تخفى وقد نزيدها توضيحًا بإذن الله تعالى. وإنّ الاقتصاد لمن أهم المواضيع التي تناولتها الشريعة القرآنية بالحكم والتوجيه وكذلك النظام التربوي وسائر الأنظمة القضائيّة والاجتماعية وغيرها.

فلم يندّ عن هذه الشريعة العظمى باب ولا مبحث، وجرت أحكامها ما بين الإباحة والوجوب والتحريم والكراهة والاستحباب لتبيّن للناس أمر ربّهم وما يوصل إلى رضاه من صالحات الأعمال. باختصار، إنّ الشريعة هي الجزء الثّاني العملي التّطبيقي من الدّين بعد جزئه الأوّل الإيماني التّصديقي، إنّها شهادة أنّ محمدا رسول الله ﷺ المقترنة بشهادة أن لا إله إلاّ الله. وقد جاء في الكتاب العزيز: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى

(1) مصنف ابن أبي شيبة، باب من كره النظر في كتب أهل الكتاب، ج5، ص 312. كما ورد الحديث في مسند أحمد. إلا أنه وصف بالضعف لوجود «مجالد» في رواته وهو ضعيف. وقد جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس: «حَدّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ، حَدّثَنَا اللّيْثُ، عَنْ يُونُسَ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ، كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الكِتَابِ، وَكِتَابُكُمُ الّذِي أُنْزِلَ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ أَحْدَثُ الأَخْبَارِ بِاللهِ، تَقْرَءُونَهُ لَمْ يُشَبْ، وَقَدْ حَدّثَكُمُ اللهُ أَنّ أَهْلَ الكِتَابِ بَدّلُوا مَا كَتَبَ اللهُ وَغَيّرُوا بِأَيْدِيهِمُ الكِتَابَ، فَقَالُوا: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، أَفَلاَ يَنْهَاكُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنَ العِلْمِ عَنْ مُسَاءَلَتِهِمْ، وَلاَ وَاللهِ مَا رَأَيْنَا مِنْهُمْ رَجُلًا قَطُّ يَسْأَلُكُمْ عَنِ الّذِي أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ». باب لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها. حديث رقم 2685 - ج3 ، ص 181.

يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣١﴾ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [ال عمران: 31 - 32].

وقد جاء في الكتاب العزيز كذلك ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء: 59]. فصّلت الآية الكريمة القول في مصادر التّشريع الإسلامي قرآنًا وسنّة واجتهادًا، ورتّبت أمر التّشريع الإلهي، فانتظم سلك العمل، وتبيّنت أصول الفقه الإسلامي التي فصّل القول فيها الفقهاء وألّفوا فيها الكتب بل الموسوعات التي شكّلت أحد أعظم مرجعيات القوانين في العالم، بل لعلّها أن تكون أثراها وأعمقها فقها وأقدرها على الفصل بالعدل ومراعاة الفضل وهو ما نؤمن به.

وإذ تبيّنت المصادر وتحدّدت الأصول، فقد كان الخروج على هذا التوجيه الإلهي لا يعني سوى شيء واحد، هو الكفر وهو النّفاق الذي قال فيه الله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴿٦١﴾ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴾ [النساء: 60 - 63].

أمّا القول البليغ فليس سوى مجابهتهم بحقيقة المرض الذي انطوت عليه قلوبهم وهو مرض الكفر وغياب الإيمان والشكّ الكبير في قيمة دين الإسلام وفضيلته، والاحتقار الكبير الذي انطوت عليه جوانحهم لشريعة النبي الأمي ﷺ بل لشخصه الشّريف باعتباره ليس سوى سليل المنطقة الأمية «الجاهلة» في نظرهم، المتوحشة خُلقًا وفهمًا وسلوكًا، كيف وهو لا يقرأ ولا يكتب ﴿ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْ ﴾ [التوبة: 49].

ذلك كان ظنّهم وهو إلى اليوم على ماهو عليه في سلالتهم من المنافقين التي لا تندثر في

أرض الإسلام غير أنها قد تظهر حينا وتكبت في أحيان أخرى. شكّ مهلك، وظنّ مرد، وريب مربك، بل وخوف من أن يحيف الله ورسوله عليهم، فتذهب تعليمات الدّين بحظوظهم، وتندثر باتّباعها أطماعهم وأحلامهم: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ [الفتح: 12].

أولئك مخلّفو الأعراب زمن الفتح الأكبر وأيام تأسيس بنيان الأمة الأمية المؤمنة المجاهدة الذين لم يكن لهم حظ من دين ولا جهاد، شغلتهم أموالهم وأهليهم بحسب زعمهم الظاهر، أما الحقيقة فهو كونهم ﴿ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [الأحزاب: 19].

وعلى خطى الأعراب، تنهج الجاهلية الأميّة في كل عصر وتنتج زرعها الكافر اعتقادًا، المنافق قولا وعملا وسلوكا، والتي اعتقدت ومازالت تعتقد وستبقى أبدًا تؤمن أنّ العلم والعزّة والسؤدد للكفّار وعلى رأسهم أهل الكتاب من يهود ونصارى، وأنّ الانحطاط والجهل والذلّ نصيب «العرب» جهلة التاريخ و«أوباش العالم».

إنّ النفاق الذي نجم مع خروج زرع الإسلام وازدهار شريعته وانتشار أمره، ليس سوى تلك الردّة العقليّة الاعتقادية، وذلك النكوص العملي عن الجهاد الذي تمسّكت به حثالة الجاهلية الأميّة والذي مازالت تصرّ على حمله إلى اليوم.

في الأميين فصيل أعرابي وليس عربيًا، جاهلي الخُلق، شديد التعظيم لليهود والنّصارى (أهل الكتاب) باعتبارهم في نظرهم منارة العلم الإنساني وأصل محتد الحضارة وقيم العزّة والرقيّ، دينه التذلل للقياصرة وللأكاسرة على السواء، ومنتهى طموح الكبراء فيه التحكم في رقاب بني جلدته وسوقهم بعصا كسرى أو قيصر.

أولئك أعراب الجاهلية الذين لم يشف القرآن الكريم قلوبهم، ولم تنفع السيرة النبوية الأمية الشريفة في رفع رؤوسهم، فبقوا حيث هم ومازالوا كما هم مصرّين على أن يبقوا « بَدْو» المدنية الكتابية وهامش «الحضارة» الإنسانية.

أولئك «مخانيث» أهل الكتاب في هذه الأمة، يشتدّ زرعهم النكد ويستوي على سوقه كلما طغى سلطان أهل الكتاب في الأرض ويضعف بضعفهم.

إنهم فصيل الردّة الذليل المتهالك على طاعة «سادته» من أهل الكتاب الذين يعتبرهم إخوانه الذين بهم يحيا ومعهم يحشر. جاء في سورة الحشر ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

أولئك الأذلاء أبدا، ما كانت لتقوم لهم دولة ولا لينعقد لهم سلطان اللهم إلاّ أن ينصبوا خيامهم على هامش مدنية اليهود والنّصارى ولم لا المشركين أيضًا، يستجدونهم شيئا من «فضلهم» ويستهدونهم قبسًا من «علمهم» ويتضرّعون إليهم أن يهبوهم شيئًا من «الكرامة» و«العزّة».

إنّ «دول» العرب التي نشأت جرّاء سطوة الاستعمار اليهودي النصراني وبعد سقوط الخلافة العثمانية في القرن العشرين، كلها «خيام أعراب الجاهلية» التي نصبت على هامش «المدنية» اليهودية النصرانية ومن والاها من المشركين.

إنّ مرض الشخصية الأعرابية الأساسي كونها مبخّسة لكونها الأمي بالأصالة، معظّمة للإنسان الكتابي العلمي التقدمي بحسب وهمها.

يرفض «أعراب النفاق» الانتساب للغلام «الحليم»، ويقبلون في المقابل أن يكونوا «خدمًا» لأتباع الغلام «العليم»، جهلا بقيمة الحلم الجامعة لمكارم الأخلاق، الأمر الذّي أوقعهم في أشدّ الجاهليات الإنسانية ضلالا قديمًا وحديثًا، وتعظيما في المقابل لا للعلم في الحقيقة، بل لمنافعه الظاهرة وخيرات الأكوان التي يجتنيها المتّصف به.

ورث أبناء الغلام العليم إسحاق عليه السلام العِلمَ لا بفضل منهم بل بفضل من الله تعالى، فأصابوا من الحكمة ذات الخير الكثير بنصيب وافر، وانفتحت لهم خزائن الكون الماديّ كما لم تنفتح لسواهم، فاكتشفوا من رياضيات الكون وفيزيائه ما أهّلهم لصنع

التقنيات اللازمة لاستثمار خيرات الكون، فاستصنعوا من الحديد ما حصّنهم وارتفعوا به في عنان السّماء الأرضية، ما جعل أعناق الأمم تشرئب إليهم وتعدّهم سادة «الفهم» و«قادة الإنسانية» وعقولها الوقّادة. وورث أبناء الغلام الحليم، إسماعيل عليه السلام، «الحِلم» لا بفضل منهم بل بفضل من الله تعالى، فأصابوا من الخُلق أرفعه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]، وأصبحوا بمنّة الله تعالى «قادة» الفهم، وسادة علم الإنسانيات الرفيعة التي لا يمكن لكلمة سوى كلمة «الحلم» أن تجمعها.

وبخُلق الحلم دانت لهم سماء المعنى، وانقادت إليهم علوم الروح؛ فحقّ أن يرثوا بهذه الإنسانية العميقة «القرآن الكريم»، كتاب الله تعالى الجامع للمعنى كلّه والمستوعب للفهم كلّه: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 89]. وكما أُهّلت أمة أهل الكتاب لفتوحات المباني (الكون المادي)، بالاقتدار الذي أوتيته على الولوج إلى فطرة الأشياء أي إلى نظام خلقها[1]، أُهّلت الأمة الأميّة لفتوحات المعاني (الكون الروحي) بالاقتدار الذي أوتيته على فهم «هدايات الأشياء»، أي إلى نظام مصائرها ومآلاتها. ذلك أنّ كل شيء إنما يتوفر على نظامين: نظام خلق ونظام هداية؛ قال تعالى: ﴿الَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: 50]. وكل كائن مهما عظم أو ضؤل هو خِلْقة ذات برنامج. أمّا من حيث كونه خلقة فهو يتحلل إلى أصغر ما فيه وإلى أنظمته التكوينية متمثلة في «البرامج الوراثية ADN - ARN».

وأما من حيث هو برنامج، فهو يتطوّر في النمو والازدهار بحسب خِلقته إلى ما أهّله الله له لكي يينع ويؤتي ثمرته.

---

(1) القدرة الوراثية الكتابية قدرة تحليلية، وعلمهم علم كشف عن طبائع الأشياء وأصل تكوينها، لذلك جاءت سورة «فاطر» مادحة للعلماء المقتدرين على معرفة أصل فطرة الأشياء، أي كيفية فهمها وتكونها. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾.

وحيث كانت الأهداف العظمى التي من أجلها خلق الكون ومن ثمّة استخلف الإنسان فيه، غيبية روحية أخروية، فقد تأهّل لعلم المقاصد الوجودية العظمى الأمةُ الأميّة التي اقتدرت وبفتح قرآني، على أن تؤمن بأن القصد من خلق الإنسان ترفيعه في الخلق حتى يصبح الكائن الأرفع فوق الأرض، وأن القصد من تنظيم الكون وترتيب قوانينه ليس انتظامه فحسب، بل التنبيه إلى كونه آية دالة على ربّه علاوة على القصد الأوّل وهو الانتفاع بخيراته والأكل من ثمراته.

إنّ علم المقاصد العظمى الإلهية علم أميّ بدون أدنى شكّ، وإن أشدّ الخطر على من افتنّ واختصّ بعلم «التكوين» أن يغيب عن أنظاره فهم سرّ التكوين وغايته ومقصده. إنه عندئذ سيتيه وسط كون يرى نظامه ويستفيد من خيراته ولكنه لا يربطه بربّه وغايته، وتلك خطيئة أهل الكتاب.

ولكي يكتمل العلم مع الحلم، ويتوحّد العلم بفطرة الأشياء مع العلم بغايات تكوينها وأهداف وجودها، نزل القرآن الكريم بالعلم الجديد، علم الفهم الذي قال فيه الحق سبحانه: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: 9].

ذاك علم المصلّين السّاجدين الذين استنهضتهم عقيدة البعث العظيم، فرأوا في الكون شيئا لم يره إخوانهم الذين دقّقوا في تفاصيل خلقه وبنية وجوده وحقيقة صنعته، رأوا سيره إلى نهاياته فاجتمع لديهم علم الحياة والممات بماهو فوقهما، أي بعلم البعث والنجاة. وذلك في الحقيقة معنى وراثة القرآن الكريم الذي لا يمكن أن يستوعبه سوى إنسان أميّ يقبل بحديث الخالق سبحانه عن الحياة والبعث والممات، ولا يستغرب من أمر الوجود تأسيسًا وتكوينًا ومصيرًا شيئًا، اعتبارًا إلى إيمانه اليقيني بصدق خالق هذا الكون وأنّه يخلق ما يشاء ويحكم ما يشاء وأنّه الذي ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ ﴾ [هود: 123].

إنّ الإنسان الأميّ يملك روح الطفل الصغير الذي لم يتأثر بسرديات خرافية من الأساطير والحكايات الخيالية، والذي يقبل بالضرورة كل ما يرويه له أبوه الذي لا يشكّ لحظة في أنه يريه الحق ولا شيء غير الحق.

باختصار، جاء القرآن الكريم مكمّلًا للبرنامج الإنساني، مستوعبًا للتعليم الإلهي الجامع القاضي بأنّ كمال الإنسانية يكون بالعلم والحلم معًا، أي بتحليل نظام العالم وفهم مقاصده على السّواء، وبالرّبط بين العلل والحِكم، وبين الأمور ومصائرها. واكتملت الشريعة الإلهية بالتوحيد بين الأصول والمقاصد معًا (أي بين نظام الأسباب والعلل ونظام الغايات)، فاكتمل الفقه الشرعي وتمّ للأميين الفتح الأكبر، ودانت لهم الأرض بعد أن تبين لهم حقيقة الإنسان الرّفيع من الإنسان الوضيع، وعرفوا أسباب الكرامة وأسباب العزّة فناطوا الكرامة بجهد الإنسان، والعزّة ببركة الإيمان.

فتبيّن أنّ روح البناء الأمي وأساس قوته أنه لا يبني شيئًا إلاّ عبر نظام التوحيد بين مبدأي الخلق (نظام التكوين)، والأمر (نظام الغايات والمقاصد)، اللذين لا تكتمل بدونهما شريعة عادلة رحمانية رحيمة.

إنّ النظام الاقتصادي مثلًا الذي ينبني على قواعد علمية من فهم حقيقة سير السوق وانتظام البيع واكتساب المال وتوزيعه، ينبني في الوقت نفسه على قواعد أخلاقية رفيعة تهدي وبحسب ترتيبات شرعية إلى كيفية توزيع النعم الإلهية توزيعًا عادلًا، وإلى الطريقة المثلى في الالتقاء على «مائدة الله» بروح التوحيد والأخوّة لا بروح الأثرة والاستحواذ والأنانية.

أمّا النظام التعليمي الذي يهدف إلى تعريف الإنسان بنظام العالم وكيفيات الخلق الكوني (الرياضيات - الفيزياء)، ومن ثم بكيفيات الاستثمار والانتفاع (التقنية والتصنيع...)، فإنه ولكي يكتمل لابد أن يدعم بتعريف الإنسان بأهداف وجوده وغايات خلقه والكيفيات الرفيعة في التعامل مع ربه ومع الناس ومع العالم بما يجعله كائنًا

رفيعًا وليس مخلوقًا ماديًا وضيعًا. إنّ الإنسانيات الرفيعة ضرورية مثل التقنيات، بل إنها عين الهدف الذي لأجله خلق الإنسان وبه تميّز عن سائر المخلوقات.

لذلك لا يعدّ نظامًا تعليميًا ناجحًا التعليم الذي يؤهل الإنسان للمعرفة المادية الظاهرية بنفسه وبالكون دون تعريفه بالغايات الروحية والأهداف الإلهية التي بها «يعقل» حقيقة الحياة ويعرف سرّ وجوده والغاية منه. وباندماج التقنيات والرياضيات مع الإلهيات يتوحد المعنى ويتبيّن الفهم وتلتقي المبادئ بالغايات وتتأسس تربية تصنع الإنسان المكرّم بالعلم الكوني الحافظ لأسباب وجوده الجسدي، العزيز بالعلم الإلهي الحافظ لأسباب وجوده الروحي.

وهكذا قل عن القوانين الناظمة لحياة الناس في اجتماعهم وتفرّقهم، لا ينبني منها قانون على ظلم لفرد لأجل الجماعة ولا لجماعة لأجل فرد، ولا لامرأة على حساب رجل، ولا لرجل على حساب امرأة.. ولا إمكان لهذا العدل والميزان إلاّ باستعمال ميزان مَن وضع الميزان أي بالشريعة القرآنية الإلهية الخاتمة.

الفصل الرابع

الثورة الإسلامية

بيّنا أنّ سقف الثورة الشعبية ومطلبها الأعظم تحقيق الحرية وخروج الإنسان من الحالة الأنعامية إلى الوضع الإنساني الفطري الأصلي كائنًا مستخلفًا مكرّمًا عبدًا لله وحده لا لسواه. وبيّنا أنّ هذا التحرر الأول يعدّ تحرّرًا من الوجه الأول للطاغوت الذي هو الطاغوت الشيطاني، وذلك أنه ما استكبر مستكبر وأصبح فرعونًا، وما ذلّ ذليل فأصبح عبدًا للعبيد، إلاّ بقبول التعليم الشيطاني الاستكباري وتبريره والرّضا به. قال تعالى عن فرعون: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [الزخرف: 54].

فما استعلى فرعون إلاّ بقبول هوى التّسلط والاستعلاء بفعل الخضوع لوسوسة الشيطان ولدعوته ولتعاليمه الاستكبارية ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: 12]، وما خضع ظالمو أنفسهم من أذلاّء البشر ومنحطّيهم إلاّ بقبول سيادة البشر عليهم وتعظيمهم لبني الإنسان وأرباب السلطان ونسيانهم لسطوة الله الواحد الديّان ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: 67 - 68].

كلا الفريقين أذلة ومستكبرين وجهان لعملة واحدة، وخِلقة من عجينة واحدة هي عجينة الظلم ومادّته، لذلك سمّاهم القرآن الكريم «ظالمي أنفسهم»، يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ: 31 - 33].

فإذا تحرّر الأذلّون من تعظيم من اعتبروهم بـ«الوهم» و«الظن» سادة وكبراء فلم يكبروا في صدورهم، ورأوهم بعين الحق واليقين بشرًا مثلهم، عندئذ يأذن الله تعالى بتخليصهم وهلاك أعدائهم المستكبرين.

إنّ أساس التحرر الأول إذن التخلص من «وهم» و«ظن» كاذبين يستوليان على

النفس الإنسانية بفعل الهجمة الشيطانية الوسواسية على الإنسان مدعوما بسطوة سلطان الظاهر وضلالة العقائد الغالبة (سلطان الأكثرية). فإذا انتفض الإنسان وتخلص داخليا من العقيدة الشيطانية الاستكبارية، يصبح عندئذ حرا ويستعيد إنسانيته التي لن تتحقق له بدون تدمير سلطان المخلوقات، والخضوع في المقابل لسلطان الله الواحد الأحد.

إن إنسانية الإنسان تتحقق مباشرة عند تعرّفه إلى الله الواحد الديّان.

هذه حقيقة باهرة وقضية صادقة باهرة أفاضت كتب العارفين والصّادقين من أئمة الإسلام في تبيانها وتأكيدها.

ولكن الإنسان إذ يعي أنه عبد الله، المكرّم، المستخلف،الموعود بالجنة أي بالخلود السعيد، محتاج إلى نظام متكامل من العمل والسلوك يحفظ عليه صفاته الفطرية هذه وفضائله التي وهبها الله تعالى له، إنه محتاج إلى الشريعة الإلهية.

فالشريعة الإلهية التي تمثّل الجزء الثاني من الدين مع العقيدة التوحيدية، هي جزء الشهادة الثاني بعد شهادة أن لا إله إلاّ الله؛ وهي شهادتنا أنّ محمدًا عبده ورسوله. فشهادة أنّ محمدًا رسول الله ﷺ، هي ملخّص الشريعة وهي المقصودة بقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: 31 - 32]. إنّ الكفر ليس في إنكار أنّه لا إله إلاّ الله فقط، بل أيضًا في إنكار أنّ محمدًا رسول الله ﷺ. وإنّ إنكار أنّ محمدًا رسول الله ﷺ ليس مقتصرًا على عدم الاعتراف بنبوّته، بل يشمل كل أولئك الذين لم يعملوا بشريعته، أي الذين لم يتبعوه كما نصّت الآية المحكمة.

وإذا كان إنكار نبوّة محمد ﷺ يمثّل كفرًا صريحًا كما هو شأن الكفار جملة وضمنهم كفار أهل الكتاب من يهود ونصارى الذين أنكروا نبوّة نبيّنا ﷺ، فإنّ عدم اتبّاع شريعته أي نظام حياته وسيرته العملية، يعدّ كفرًا حقيقيًا أيضًا لأنه عين النّفاق ومنبعه وأصل ظهوره، ومن ثمّة تغوّله واستفحاله.

إنّ خطأ عدد كبير من «أهل الإسلام» الذين نحسبهم صادقين، كونهم لم ينبّهوا إلى هذه القضيّة الاعتقادية الأصولية تنبيهًا واضحًا وهي كون الاعتراف بأنه لا إله إلاّ الله دون طاعة محمد رسول الله ﷺ هو عين النفاق، رغم أنهم يتلون بالليل والنهار قوله تعالى في مطلع سورة «المنافقون»: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾. إنّ النفاق وهو ليس سوى إنكار العمل بشريعة رسول الله ﷺ استثقالاً لأحكامها وانهزامًا أمام سلطان الهوى رغم الادّعاء الظّاهر والاعتراف القولي برسالته ﷺ، كفر من أشنع الكفر، بل هو الكفر الأخطر، ومقترفوه هم الذين قال فيهم الحقّ سبحانه: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: 4]. وما ذلك إلاّ لكونهم: ﴿ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: 3].

إنّ الكفر النّفاقي يتجاوز في خطورته الكفر الإلحادي، وذلك لأنّ النفاق يغول الإيمان ويحيا في داره. وبين ظهراني المؤمنين يضرب المنافقون خيامهم لا لكي ينصروا الدّين ويحيوا شرع الله تعالى، بل ليثبّطوا العزائم، ويقضوا على المعنى الحقيقي للدّين بتمييعهم للالتزامات الشّرعية، ونشر قيم الانحطاط وثقافة اللهو واللعب عوضًا عن قيم الجهاد والجدّ والعمل.

ولمّا كان الإيمان محض التصديق والاعتراف القلبي، ولمّا كانت القلوب بين أصابع الرحمن لا يطّلع عليها غيره، لم يعسر على المنافقين عبر الأزمان الاعتراف الظاهر بدين الإسلام، والادّعاء اللّساني بأنهم من أهل الإيمان.

إنّ سقطة المنافقين القاتلة والمدمّرة لشخصيّتهم إنّما هي في ميدان الشّريعة. فلمّا كانت الشّريعة جملة أعمال والتزامات فرديّة وجماعية، عباديّة وعمليّة، ليليّة ونهاريّة، فإنّ المنافقين ما كانوا ليقووا على الالتزام بها لأنهم ببساطة لا يملكون الطاقة الإيمانية اللازمة لطاعة إله لا يرونه ولا يؤمنون به ولا بالساعة التي ينذر بها إلاّ ظنًا: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: 32].

وحيث أعمل النفاق سلطانه، كان ينتج الردّة تلو الرّدة بدءًا بردّة المرتدّين أيام الصدّيق

رضي الله عنه، وكانوا أعلنوا أنهم سيقيمون الصلاة ولن يؤتوا الزّكاة سعيًا إلى الفصل بين العبادة والعمل، بين العقيدة والشّريعة. إلاّ أنه رضي الله عنه وهو من هو في الإيمان، كان يعلم أنّ التفصّي من مسؤولية الزكاة تفصّ من الإسلام، استنهض المؤمنين لمحاربة المرتدّين معلنا أنّ الزّكاة أخت الصّلاة، وأنّه لن يقبل بالفصل بين العبادة والمعاملة لأنّ ذلك بالفعل لو حصل سيكون بمثابة الفصل بين الإيمان والإسلام، بين العقيدة والشريعة.

إنّها الرّدة إذن، وإنّ الخليفة المستأمن على المشروع القرآني التوحيدي (بين الإيمان والإسلام)، ما كان ليرضى بأن يضيّع المشروع التّوحيدي (الشهادتان:الشريعة والعقيدة)، تحت أيّ شعار كان، وأيّ دعوى مهما كان من بريق ظاهرها.

إنّ رفض المرتدّين لدفع الزّكاة رفض للإسلام المستوعب لكل نظام العمل الصّالح القرآني المحمّدي، ولشريعة النبيّ الأمي ﷺ ولكل النظام المدني الإسلامي الذي جاء من أجل بنائه.إنّه باختصار، رفض للبرنامج الرّسالي وإنّه كان سيؤول بالدين التوحيدي القرآني الخاتم إلى نفس مآلات الردّة اليهودية عن شريعة التّوراة، ثم الرّدة النصرانية عن شريعة الإنجيل التوراتية المخفّفة.

إنّ مشروع الردّة كان باختصار مشروع التّدمير والقتل للدولة الإسلامية الوليدة، ومشروع التّحطيم لمسار الخلافة الراشدة باعتبارها النظام السياسي الجديد القيّم على المشروع التوحيدي النبوي.

وإذا كان بنو إسرائيل ارتدّوا إلى ديانات الكفر وإلى شتّى شرائع الأهواء (ديانة اللهو والتجارة)؛ وعلى نهجهم سار النصارى الذين تفصوا من المشروع الإيماني جملة وتفصيلا، فإنّ مرتدّي «العرب» لم يكونوا يرغبون سوى في العودة إلى قيم الجاهلية العربية القائمة على شريعة التّوحش والظلم.

ارتدّ اليهود عبيدا للعجل، وارتدّ النّصارى إلى وثنية الرومان وقوانينهم الوضعية، وارتدّ الأميّون إلى الجاهلية العربية ليعلوا سلطان الشعْر من جديد، وليصبح الفخر والمدح

والهجاء عمدة قاموسهم الأخلاقي الذي دمّر وحدتهم وجعلهم قبائل متناحرة ديدنها الصّراع ووأد الفطرة: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: 8 - 9]، لحساب شريعة الذّكر الغالب المستولي على قطعان الإناث. فليس في قطيع الذّكر الغالب ذكور إلا إذا كانوا مقطوعي الرّؤوس أو مدفونين في غياهب سجون الاستبداد القائم على الفردية والأنانية والظّلم.

ليس عجيبًا أن يرتدّ على نظام الخلافة الإسلامية قوّتا الردّة الأعرابية الخارجية (الخوارج)، والردّة الفارسية الشعوبية التي تدرّعت بالتشيع لآل البيت النبوي زورًا وبهتانًا.

إنّ التّشيع الفارسي و«التصوّف» العربي الكاذب كليهما يستمدان من مشكاة واحدة هي مشكاة الردّة الشعوبية الأعرابية.

وإذا كان التشيع وما انبنى عليه من أكاذيب، ثم ما آل إليه من خرافات، ثم ما أصبح عليه معتنقوه من ضلالات فاقت في كثير من الأحيان ضلالات المشركين، لا يحتاج إلى انتقاد ولا إلى تعليق[1]، فإنّ التصوف الطرقي المنحطّ، «والعقائد الأوليائية» التي انتشرت في كل شبر من أرض الأميين (المنطقة السنّية)، أصبحت تضاهي مزارات أئمة «الشيعة» بل لعلها أن تفوقها بعض الأحيان. وهكذا، وبحيل شيطانية خبيثة إمّا مدبّرة أو قائمة على الجهل وخاصة على الرغبة في اتباع الشهوات والعزوف عن العزائم والواجبات،

(1) رغم أنّ كتب علم الكلام والمؤلفات في العقائد الإسلامية تنظر باحترام إلى التّشييع «الإثني عشري»، وتعتبر معتنقيه من أهل الملّة الذين يجب أن لا يبدّعوا ناهيك أن يكفّروا. وهكذا استمر نهج المهادنة بين «أهل السنة» و«الشيعة» ليلتقي الأصدقاء الأعداء لقاء غير كريم، حتى إذا ظهرت كتائب الأعداء (المغول - الصليبيين - الفرنجة...)، تشتت الجمع وأصبح القريب بعيدًا وتوطأ الشيعي مع العدوّ الكافر، وأظهر له من آي الطاعة والخنوع، كل ذلك ليمكنه من شفاء غليله من أعدائه «أهل السنة»، الذين يعتبرهم وحدهم العدو. إنّ ما ارتكبه الشيعة في العراق وسوريا وبلاد الشام متواطئين مع الغزو الصليبي الأمريكي - الأوروبي - الروسي، يندى له جبين الإنسانية، وعار هو عار الأبد.

تهيّأت الأرضية «العقدية» لضرب المشروع الرسالي المحمدي، أي الشريعة الإسلامية باعتبارها الوجه العملي للدين الإسلامي.

إنّ التشيع الفارسي الشركي في عقائده، الشعوبي في شريعته (سياسته)، والتصوف البدعي الذي استوطن الأمة الأمية، الجاهلي في عقائده، التعصّبي القبلي في منتجه السياسي، كليهما أنتجا هذا المشهد الذي نرى اليوم، والذي آل بالضرورة غلى هيمنة اليهودية - النصرانية على العالم لا باعتبار قوة العلم المادي وسطوة الحديد كما يدّعي كثيرون، بل بدرجة أولى لغياب نور التوحيد فوق الأرض إلاّ ما تعهّد به الله تعالى من حفظ دينه. وعندما يصبح الكفر والشرك سمة غالبية أهل الأرض، فالغلبة لن تكون بالضرورة إلاّ للأقوى ساعدًا وللأوفر عدّة.

إنّ ظهور اليهود «بني إسرائيل»، متضامنين مع من قالوا: «إنا نصارى»، مدعومين بسلطان العلم والمال، واستيلائهم على المسجد الأقصى من جديد، وارتباط هذا الحدث المريع بسقوط «الخلافة الإسلامية»، دليل قاطع على أنّ وجه الشريعة الأميّة قد غاب، وأنّ سلطانها قد زال فوق الأرض بعد أن زال سلطان التوحيد من قلوب المدّعين اتّباع النبي الأميّ ﷺ الذين لا يزيدون على الصلاة عليه بألسنتهم، أمّا برنامجه التشريعي العظيم فهم أبعد من أن يعرفوه ناهيك أن يتّبعوه.

أمارة انتقال الأمة الأميّة من حال الإيمان إلى عقد النفاق، اتّباع اليهود والنّصارى ومؤاخاتهم. تلك أمارة واضحة ثابتة دالة يقينا على انقلاب وجه القِبلة أمام مدّعي الإسلام والإيمان هؤلاء، وأنّهم إنما أصبحت قبلتهم نفس قبلة اليهود والنّصارى، أي الأموال والأولاد والدرهم والدينار، وباختصار، الدار الدنيا وشهواتها وليس الآخرة وجنّاتها.

تحتاج القبلة الأمية إلى قلب طاهر متطهّر يتجاوز أحراش وصحارى الوادي غير ذي الزّرع ليصل إلى كعبة البيت والبلد الحرام الذي وضعه الله تعالى في قلب الأرض الطّاهرة. قلب ليس له من هدف سوى الوقوف بين يدي الله مصلّيًا ساجدًا معترفًا.

قال الخليل عليه السلام معلنًا عن مشروع البيت العتيق وورثته: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٖ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: 37].

ولمّا كان المنافقون على نفس قبلة أهل الكتاب الدّنيوية، فإن ولاءهم الحقيقي هو لأهل الكتاب دون سواهم، وأخوّتهم وحبهم لهم ظاهر لا يخفى. وحسبك قول الله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الحشر: 11]. ذاك ولاء كاذب، لأنّ أهل الدنيا ما كان أحدهم لينصر أخا له حتى ولو كان على نفس مذهبه. إنّ انتصارهم هو أبدا لذواتهم ولأناهم الضيّقة. ولمّا كان المشروع القرآني مشروعًا مكتملًا نزل بعزّ الأميين وبإعلان ولايتهم وظهور عصر تمكينهم، فقد كان من أهم تعليماته تحجير اتّباع اليهود والنّصارى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة: 51].

وقد بشّر الله تعالى المنافقين بأنّ لهم عذابًا أليمًا، وأكّد أنّ سبب ذلك اتخاذهم الكافرين أولياء: ﴿ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ١٣٨ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: 138 - 139]. عقد الإيمان واضح في شرطه أن لا يتبّع «المؤمنون» اليهود والنّصارى، بل في أمره المؤمنين أن يخالفوهم، وأن لا يوافقوهم على شيء اللهم إلاّ على تصديق إلهية مصدر التوراة والإنجيل ونبوّة الكريمَيْن موسى وعيسى عليهما السلام وقول لا إله إلا الله. هذا وإنّ المنافقين لا يوالون الأمة المؤمنة من أهل الكتاب الذين قال فيهم الله تعالى: ﴿ ۞ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران: 113 - 114]. بل إنّ ولاءهم لكفار أهل الكتاب بالتحديد ﴿ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ [الحشر: 11]. ذلك ما يفسّر إقبال «مثقّفي» الأمة الأميّة على العقائد الوثنية الجديدة التي ظهرت

في البيئة الكتابية والتي قتلت كل أثر للإيمان حتى لو كان ضئيلا مثل الاتجاهات الإلحادية بأنواعها من ماركسية ورأسمالية (عبادة الدرهم والدينار)، وغيرها.. والتي لئن اختلف شكلًا فإنها تلتقي جميعًا حول الاعتقاد في كون مادي صرف، وفي إنسان ماديّ الرغبات والحاجات.

تغلّب الكفر في البيئة اليهودية النصرانية، واقتصدت أمّة، إلا أن الأغلبية فسقوا وباؤوا بغضب من الله. وكان رفع المسيح عليه السلام علامة واضحة على حرمانهم من الإرث الإلهي بما حرّفوا الكلم عن مواضعه، وبما لبسّوا الحقّ بالباطل، وبما كتموا الحق، وبما اشتروا بآيات الله ثمنًا قليلًا، وبما خشوا الناس ولم يخشوا الله. وقد شهد القرآن الكريم بكل هذا، وانتهى بأن اعتبرهم من جملة فسّاق الأرض رغم أنه أعطاهم صفة «أهل الذمّة» عدلًا منه سبحانه وتفضّلًا على تلك الطّائفة المستضعفة فيهم التي تحب الحقّ والخير ولا تجد إليهما مع العتاة سبيلًا.

جاءت الثورة القرآنية زلزالًا غيّر كل شيء بدءًا بجوهر المقصود وقبلة الرّب المعبود، وتغيير القبلة ليس حدثًا هيّنًا على ذي علم وفهم، إنه إيذان بتغيير كل نظام الفهم والاعتقاد فكيف بالعمل.

إنه البدء بالنية والمقصد والغاية والهدف: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ [البقرة: 143].

وبالنسبة لذي علم أيضا، فإنّ القبلة لا تتغير، إنها الإيمان نفسه، لذلك قال الحق سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ ﴾.

ولمّا كان سجال وتنافس أمم الكتاب بأهله السّابقين ثم بالأميين من بعدهم على وراثة الكتاب بالحق، فقد ورّث الله سبحانه أهل الكتاب «المسجد الأقصى» وجعله لهم قبلة

باعتباره الوجه الظاهر في المنطقة ذات الزرع للبيت العتيق «المنطقة التي بارك الله حولها». وكان من حيث الترتيب الإلهي يجب أن يؤول التمسك بالقبلة القدسية «المسجد الأقصى»، إلى انتظار العهد الأمي، عهد ظهور البيت العتيق أول قبلة وآخرها. وما المسجد الأقصى إلا علامة دالّة عليه.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: 157].

إلاّ أنّ الخيانة الكتابية وتوليّ اليهود والذين قالوا إنّا نصارى إلى عقائد أسلافهم المشركين فاستبدلوا الدين بالفلسفة[1] التي ضربت جذورها في أرضهم، ولم ترتح لهم أنفس حتى أعادوا إليها سلطانها الغابر وزادوا في أوار نارها بما زعموه «أنوارًا» جديدة هي عندهم قيم عظمى ونهاية ما يمكن أن تبلغه الإنسانية من فهم.

وكذلك فعلوا بالشريعة الموسوية – الإنجيلية التي لم يقرّ لهم قرار حتى استبدلوها نهائيًا بالاقتصاد السياسي ليكون مجتمع تنظيماتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية عنوانًا على إنسان أصبح «سيّد نفسه»[2]. تلك الخيانة التي ظهرت أولا في اختلافهم على أنبيائهم ورفضهم للشريعة الإلهية ولغوهم فيها: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾ [آل عمران: 75].

وكأنّ الأميين «وحوش الأرض» الذين لا ربّ لهم، وكأنهم هم (اليهود والنصارى)

---

(1) لا نقصد بالفلسفة حب الحكمة ولا ممارسة التفكير والتّدبر فتلك قيم قرآنية أصيلة ولكن نقصد جعل الفكر الإنساني مصدرا للحقيقة وليس مجرّد قارئ في كون الله تعالى بما ينفي أولوية الهدى والكتب المنزّلة.

(2) «سيد نفسه» يصفه القرآن الكريم بأنه الذي اتخذ إلهه هواه.

«سادة أهل الأرض»، و«شعوب الله المختارة»: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة: 18].

ثم خانوا ثانيًا بتكذيب النبي الأمي ﷺ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: 15]. وحيث تمّت خيانتهم لأمانة الكتاب السّماوي الذي أوتوه فضلًا من الله تعالى عليهم، فلم يعودوا بالنسبة لذي علم ومصدرًا للمعرفة ولا أقطابًا للحقيقة. إنّ الإنسانيات الحديثة مهمًا بدا من بريقها، ملوّثة بدخن الكفر والنفاق الكتابيين، يراه الموحدون ولا يراه من أعمته قوة اليهود والنصارى التقنية الصناعية.

وبظهور البيت العتيق ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 96]، رجع كل شيء إلى أسّه، وورّث الله تعالى الأميين الذين طالما كانوا مستضعفين مهانين، ناهيك أن يعرفوا الكتاب، أو أن يحلموا بأن ينزّل عليهم ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: 52]، وبتنزيل قاهر مهيب من العزيز الحكيم، أصبح «المهانون» ظلمًا وعتوّا، المتّضعون في أنفسهم، الذين كان منتهى غاياتهم أن يستوعبوا من أهل الكتب فهما، أو أن يتطفّلوا من خلالهم على حقيقة، أئمة ورثة للحقيقة كاملة يهدون بها بعد أن اهتدوا بها.

تلك كانت حقيقة الثورة القرآنية العظيمة، وذلك كان عمق القرار الإلهي العادل الحكيم، وتلك كانت مشيئة الرحمن الرحيم الذي ما أشرقت شمسه على الغرب إلاّ كما أشرقت على الشّرق، وما تفضّل عنده غني على فقير ولا فقير على غني إلاّ بالتقوى.

حرص أهل الكتاب (اليهود والنّصارى)، لا على أن يحفظوا الكتاب وأن يؤدّوا الأمانة وينشروا رسالة الله في الناس، بل على تهويد التوراة، وجعلها مِلك بني إسرائيل، وتحريفها لتكون لسان كبريائهم وكذبهم على ربّهم، كما حرص إخوانهم من وثنيي الرومان الذين

قالوا إنا نصارى لا على نشر رسالة عيسى عليه السلام، بل على تحريف تلك الرسالة وقلبها لتصبح رسالة شرك وكفر لا رسالة محبّة وتوحيد وغفران، وشتّان مابين من قال المسيح عبد الله ومن ادّعى أنه ابن الله. وعند الله تجتمع الخصوم.

كان الحرمان الإلهي المدوّي لأهل الكتاب (اليهود والنصارى ومن والاهم)، من الشدة ومن الوضوح بحيث ذهب بآمالهم وحطّم أحلامهم؛ وهو لذي علم حرمان حقيقي، كيف وأهل الكتاب الذين ديدنهم التصدّر في الإنسانية واعتبار أنفسهم هداة العالم: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾ [البقرة: 135]، ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: 111]، يصدمهم الردّ القرآني الحاسم: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: 111].

منذئذ، لم يعد لأهل الكتاب من برنامج سوى السعي لإحباط البرنامج الإلهي، ولم يعد لهم مع الأميين من علاقة سوى السعي إلى ردّهم كفارًا حتى لا ينالوا الخير الإلهي ولا يكونوا مؤهلين لنشر النور السماوي: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: 109].

لذلك نؤكّد استنادًا على التوجيه القرآني الحكيم أنّ الثورة الأمية من أخصّ خصائصها ومن أبرز سماتها مخالفة الخط الكتّابي (اليهودي - النصراني)، لا بل فضحه وفوق ذلك مقاومته وتدميره. إنّ الروح الأميّة لن تزدهر إلاّ إذا ضمرت الروح الكتّابية وقُهرت، ورُدّت إلى حصون الصّغار: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: 29]؛ كل ذلك بالحق لا بتعصّب ولا بادعاء باطل.

إنّ أهمّ معالم الثورة الأميّة أنها ثورة قرآنية أو لا تكون لأن الأميين لا يملكون تاريخًا للعلم ولا خزانةً للكتب موروثة، إنهم لا يملكون سوى صدور فارغة يجب أن تملأ بكلمات الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 49]. وإنّ توجه الله سبحانه إلى النبي الأمّي ﷺ بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ

مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾ [العنكبوت: 48]، هو في الواقع خطاب لكل الأميين الذين ثبت من خلال تدبّر تاريخهم أنهم لم يكونوا ولن يكونوا أهل علم، اللهم إلاّ العلم الإلهي المنزّل، أي القرآن الكريم.

ورث أهل الكتاب العلم، وهو أحد جزئي ميراث إبراهيم الخليل عليه السلام باعتبارهم أبناء اسحق «العليم»؛ قال تعالى في بشارة الملائكة عليهم السلام لإبراهيم عليه السلام بإسحق عليه السلام: ﴿ قَالُواْ لَا تَوجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴾ [الحجر: 53]. وجاء في سورة الذاريات: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴾ [الذاريات: 28]. وأصبح العلم لهم صنعة وصفة، فهم أهل العلم وسادة الفهم في حقائق الكون المادي رياضياته وفيزيائه، وأضافوا إليها حديثًا الميكانيك والتكنولوجيا، فطوّعوا الحديد واستردّوا صنعة داود. كل ذلك لا ينكره عليهم سوى جاهل بالوضع والمواريث الإلهية.

علم أهل الكتاب هو العلم الكوني المرتبط بالمادة وبالحديد، إنه العلم الذي أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٞ ﴾ [فاطر: 27 - 28].

انفتحت فطرة الكون المادي أمام أهل الكتاب كما تنفتح أمام سواهم، وحلّوا الشفرات،وقرؤوا الكروموزومات، ووصلوا إلى معرفة ما بداخل الذرّات. ذاك ميراثهم من أبيهم إبراهيم الخليل عليه السلام، وكان من حيث الحكمة يجب أن يشكروا عليه، وأن يوجّهوه في سبيل خيرهم وخير الإنسانية ولكن أين منهم الخير وهم قد غيّبوا وجه الحق بلغْوهم في التوحيد، وانقلابهم كفارًا من جملة الكفار. ومعلوم أنّ الخير ثمرة الحق، فلا خير يأتي ممن ضيّع الحق.

وفي المقابل، ورث الأميون أبناء إبراهيم عليه السلام الحِلْم من خلال أبيهم إسماعيل عليه السلام الذي لقّبه القرآن الكريم بالغلام الحليم: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٩٩ رَبِّ

هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات: 99 - 101]. وصفة الحلم مفتاح النفاذ إلى فطرة الإنسان الشريفة الرفيعة. وبذلك انفتحت أمامهم الخصال الرفيعة الأخلاقية الأصيلة المتجذرة في فطرة الإنسان. فقرؤوا الفطرة كما لم يقرأها سواهم، وكانوا دائمًا أقرب إليها .إنّ كتاب الإنسان (الإنسانيات)، أصله وأمّه لدى الأميين أهل الفطرة السّليمة.

وكان من حيث الحكمة يجب أن يشكر الأميون ربّهم على توريثهم الدين الحنيف الذي جاء كاشفا عن حقائق الفطرة الإنسانية السليمة منبّها على كل أنواع التّبديل والتغيير والشّذوذ التي أحدثها الشيطان ووصم بها الإنسانية الضالة. قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: 30]. وقبل هذه الآية مباشرة نعى الله تعالى على الضالين من بني البشر اتّباعهم الأهواء وترك العلم الإلهي اليقيني: ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [الروم: 29]. هذا، وليس من ضمانة لبقاء الإنسان على فطرته الإنسانية التي فطره الله عليها إلا بالشريعة المدمّرة للأهواء والمقيمة لميزان القسط في كل شيء، فلا إفراط ولا تفريط، بل طريقة وسط ومنهج معتدل مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾ [البقرة: 143]. إلا أن الأميين وقد هجروا القرآن الكريم، وتخلوا عن شريعته الإسلامية الوسطية، ارتدوا إلى طبعهم في تقليد الأمم، حيث لم يعد لهم مرجع سوى التقليد والأخذ عن الآخرين. إنّ من أخص خصوصيات الأمّي تسليمه بكونه عبدًا مستمدًا مقلدًا تابعًا، وباختصار قارئًا وليس عالمًا.

هذا، وليس أعجب في تاريخ الأمم من أن ترى الأميين الذين جاءهم القرآن الكريم (الكتاب الإلهي)، بالنبأ اليقين في مسائل الإنسانيات (نظام العمران الفردي والاجتماعي)، يتخلون عن اليقين، ويلتفتون إلى ظنون أهل الكتاب وفلسفاتهم ليجعلوها مرجع فهمهم، جاهلين أن مفتاح الإنسان (الفطرة) في أيديهم، تمامًا مثلما أن مفتاح الكون المادي في يد أهل الكتاب.

علم الأميين الموهوب الإيمان بالغيب، وجهدهم المطلوب إقامة الصلاة، وثمرته الجنيّة الحِلْم، ونتيجته الضرورية حضاريًا أن يكونوا معلمين (دعاة)، يهدون الأمم إلى ربها، وتخدمهم الأمم بصناعاتها وسائر أفضالها وتقنياتها، وتأتيهم راغمة بجميل الثمرات.

لماذا أكدنا على هذه الحقائق الأساسية ؟ ليس فقط لأنها أساس فهم «حوار الحضارات» بعبارة الراحل «رجاء الجارودي» رحمه الله، بل لأنها قبل ذلك قاعدة التدافع التاريخي بين الأمتين الوارثتين: أهل الكتاب ومن والاهم، والأمين ومن والاهم. ولا يوجد خارج هذا التدافع التاريخي الذي انتظم بظهور الخليل عليه السلام ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: 124]، شيء سوى ظلمات الشرك التي ليست سوى مستويات دنيا من الإنسانية لا بؤبه لها.

إنّ التاريخ يزدهر بمقدار القرب من الرب تعالى. وقد كان من قدره سبحانه أن جعل من إبراهيم الخليل فردا، أمّة، أبا، مؤسسًا لملة الإسلام، وأنه أصبح للناس إمامًا. قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: 124].

تمحورَ التاريخ حول ذرية إبراهيم عليه السلام تَقيّهم وظالمهم. ورفعت قواعد البيت العتيق مرة أخرى بعد الطوفان الكبير ليحيي إبراهيم ما انقطع من سير التاريخ البشري؛ قال تعالى في نوح عليه السلام: ﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات: 83 - 84]. وقال تعالى مباشرة بعد جعله إبراهيم الخليل عليه السلام إماما للإنسانية: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ۖ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [البقرة: 125].

ليس مصادفة أن يرفع البيت إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وليس من المصادفة بطبيعة الحال إلاّ لأعمى لا يقرأ باتزان أن يكون البيت أصلًا في قلب الجغرافيا الأمية.

إنها الإشارات الأولى إلى تاريخ الوراثة الأمية لعلم الروح الذي هو «الإيمان بالغيب»،

ولمفتاحه المتمثلة في «الصلاة». الإنسان المصلي «محمد»، أي الشاكر؛ والأمة المصلية الأمية، كان تاريخها يصنع في تلك الدعوات التي رفعها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما يرفعان قواعد البيت العتيق: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: 127 - 129].

تلك هي الملة في أوضح ملامحها ومعانيها بل في مشروعها العظيم، المشروع الإيماني الرسالي الرباني البشري فوق الأرض.

وكان واضحا أنّ شهود إسماعيل عليه السلام لدعاء التوريث ومشاركته فيه أنّ الخط الإسماعيلي هو الخط الوارث للملة الإبراهيمية المشرفة. وكان من حيث المبدأ يجب أن يسعد الأميون بأنهم أصحاب الحظ العظيم، وأن الله تعالى الذي ألقى بأبيهم إسماعيل عليه السلام في قلب الصحراء العربية الكبرى لم يكن يهدف إلى قتله وتدميره؛ وأنه سيفجّر له من عين المنّة في قلب الصحراء بئرًا لا تنضب.

إنّ كل رزق يتنزل في الصحاري القاحلة لن يكون سوى رزق موهوب وعطاء مباشر جنيّ حاضر لا تعمّل فيه، تماما مثلما رزقت مريم الصدّيقة عليها السلام في قلب المحراب: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: 37].

إنّ الصلاة تمنح صاحبها حق الوقاية والكفاية، وتكفيه مؤونة اتخاذ السبب الظاهر. أليس مريم الصدّيقة رزقت عيسى المسيح عليه السلام بدون أب؟ ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم: 20 - 21]. كان ذلك آخر عهد بني إسرائيل ورثة الكتاب بمعجزات الغيب، وأنّ الله يرزق بالأسباب وبدون أسباب، أي عهدهم بسؤال

الإيمان نفسه. هم الذين لم يؤمنوا سوى بالأسباب، ولم يستطيعوا أبدًا أن يتخلصوا من الصّنم «العجل»، رمز المادية السببية الظاهرية حتى إنّ قوة العبادة نفسها لم تستطع أن تعرف لها إلها إلاّ بالجعل: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ [الأعراف: 138]. وقبل ذلك كان لبني إسرائيل موعد مع موسى عليه السلام الذي رأوا بأمّ أعينهم أنه نجا بالله وحده (بدون سبب مادي ظاهر)، ونجّى بني إسرائيل بدون السبب الظاهر المادي، ولكن هل اعتبروا؟ **إنّ موسى عليه السلام الذي قذف في اليمّ فأحياه الله، هو وريث يوسف عليه السلام الذي قذف في الجبّ فأنقذه الله تعالى. كما أن إسماعيل عليه السلام الذي قذف في الصحراء فأنجاه الله، هو وريث إبراهيم الخليل عليه السلام الذي قذف في النار فأطفأها الله تعالى وجعلها عليه بردًا وسلامًا.**

وفي قلب المنطقة الأمية الصحراوية التي تحكم الأسباب أنّ من دخلها اندثر أو كاد، وأنّه سيقضى العمر باحثًا عن أقل أسباب الحياة، وأنه سيقضي العمر أيضًا واقفًا على أعتاب مناطق العمران يطلب ما يسدّ الرمق ويستجدي القوت، كان سيخرج الإنسان الذي غاص في بحر الحمد وصنع من نسغه الشريف حتى سمّى «محمدًا». إنه النبي الأمي ﷺ، الوارث للكتاب والحكمة والملك العظيم، أي لكل إرث إبراهيم الخليل عليه السلام.

قال تعالى في بني إسرائيل الذين ﴿أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [النساء: 44]، أي حظًا منه وهو التوراة فانقلبوا عليه وحرفوه فأصبحوا ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ٥١... أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: 51 - 54]. فلما ورّث الله تعالى أبناء إسحاق ويعقوب عليهما السلام الكتاب، وعهد إليهم برسالته الغيبية الإيمانية، كان المفترض فيهم أن يعتزوا بهذا الميراث العظيم، وأن يتهيؤوا إلى أن يكونوا رسله في العالمين. إلاّ أنّ بني «إسرائيل» استجابة منهم لطبع أعرابي (عبري = ساكن الصحراء)، نفاقي عجيب، نكصوا وارتدوا، وحصروا الفضل في سلالتهم الإسرائيلية وأعلنوا أنهم شعب الله المختار وصمّموا الغيب، واحتكروا التوراة ﴿تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ [الأنعام: 91]، فأخفوا وأبدوا

بحسب أهوائهم، وباعوا «الهداية»؛ والخلاصة أصبحوا كمن يبيع نور الشمس للعالمين متناسيا بغباء كامل أنّ نور الشمس لا يمكن حجبه بأي وسيلة من وسائل الأرض.

إنّ بني إسرائيل هم المعنيون بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ [النساء: 55] عند حديثه عن إرث آل إبراهيم عليه السلام. صدوا أنفسهم عنه، وسعوا جاهدين إلى صدّ الشعوب فكانت النتيجة أن ارتدوا إلى الشعوبية القبلية الجاهلية المادية القاتلة المحصورة في أضيق السبل لكي يعملوا بكل الأحقاد الدفينة والظاهرة على نشر الظلمات ووأد النور في كافة أرجاء العالم ولكن خاصة بين ظهراني أعدى أعدائهم الذين يكرهونهم أشد الكره، أعني الأميين الذين استجابوا لله وللرسول لمّا دعاهم لما يحييهم، فاستأثروا بالفضل العظيم، وحازوا بوراثتهم لإبراهيم عليه السلام الكتاب والحكمة والملك العظيم.

ولمّا كان ميراث الخليل عليه السلام متكاملا غير مجزأ، فقد كان جديرا بمن نال شرف حمل الكتاب أن ينال الحكمة وأن يحظى بالملك العظيم أيضًا. إلاّ أنّ بني إسرائيل الذين ﴿حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ [الجمعة: 5]، لم يفقدوا بتضييعها (تحريفها وجعلها قراطيس للبيع والاستغلال المادي)، الكتاب فقط، بل فقدوا أيضًا الحكمة، أي نظام العمل وبناء العمران النافع؛ وفقدوا كذلك الملك العظيم وهو السيادة فوق الأرض (التمكين الدنيوي)، والجنة في الآخرة (الخلود الأخروي)[1].

وبانهيار الكيان الإسرائيلي - الكتابي - واندثار سلطانه بناء على الحرمان الإلهي بسبب كل تلك الشناعات وذلك النكوص الرهيب عن الانفتاح على العالم والانكماش المَرَضي على الذات، أصبح بنو إسرائيل ومن والاهم على الكتاب المحرّف، رسل الضلال والإضلال، وانتهوا بأن استصنعوا للإنسانية سبل التخلص من «عبء الغيب» ومن

(1) لا يكون الملك عظيما إذا اندثر وانقضى وإنما يعظم الملك بالزيادة و الاستمرار, فكل ملك يزول ليس عظيما وإنما الملك العظيم هو لأهل الله المؤمنين الذين يكسبون بفضل الله التمكين في الدنيا(وراثة الأرض)، والجنة في الآخرة (يتبوؤون من الجنة حيث يشاؤون).

«تعاليم الرب»، فأطفؤوا نور الإيمان بالنفخ في كل فلسفات الكفران: (شيوعية وجودية ملحدة..)، واستبدلوا بالشريعة الإلهية التوراتية ثم الإنجيلية[1] كل القوانين الوضعية والعقود الاجتماعية التي بنوها من وحي أهوائهم، ومن خلال رؤيتهم هم لها يظنونه «الوضع الأمثل» للإنسان فردًا ومجتمعًا.

وعلى أساس من آليات «التحليل» و«الحفر» الشكلاني في البنى الظاهرة الفيزيولوجية، والأركيولوجية والنفسية والاجتماعية، قامت الإنسانيات الجديدة لتقرأ الإنسان من خلال «الوضع» الكوني ناسية أنّ الكون نفسه له واضعه (جاعله)، بل فوق ذلك وقبل كل شيء له خالقه. وكان يمكن أن يفلح «التحليل» وهو اليد الضاربة للعلم في كل مجالاته، لو أنه آل إلى التأويل، أي إلى النهايات الحقيقية لكل ما يتحلل بإعلان سلطان الخلق، وأن كل شيء مخلوق ما دام كل شيء يؤول إلى كونه بنية ونظامًا. إلاّ أنّ الجحود الكتابي المتعمد الذي أساسه الرغبة الموروثة عن العقائد الوثنية الفرعونية في اتخاذ إله بالجعل ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ [الأعراف: 138]، أي في المحصلة اتخاذ عقيدة صنمية، أدّى بأهل الكتاب ومن والاهم إلى «التقلب في الوضع» منكرين أظهر ما في القضية الوجودية كلها أعني «الواضع للموضوع»، ذلك رب العالمين.

لن نتمادى، وكما أنّ من حق الإنسان أن يبدل نعمة الله كفرًا، فإن من «حق» الخالق العظيم ومن عدله أن يجازيه بجزاء من جنس عمله فيبدل فضله انتقامًا ورحمته لعنة.

وحيث أصبح «الكتاب» بالنسبة لليهود والنصارى مجرد «كسب» آخر ولقب يراد به التعالي على بقية شعوب الأرض دون أن يكون لشريعته أي دور في حياتهم، فقد كان من عدل الله تعالى أيضا أن يحرمهم من جوهر الكتاب، ومن أمّه، ومن آياته البينات لكيلا يبقي بين أيديهم سوى لقب هو علامة على «مجد غابر» وصلة قديمة بالغيب تمامًا مثل

(1) لئن كان الإنجيل بالأساس كتاب هداة إيمانية ومواعظ، فقد أقر بني إسرائيل وكل من آمن به على شريعة موسى عليه السلام مع تخفيف بعض أحكامها التي شدّدت على بني إسرائيل...

بعض العائلات الملكية التي يقع إزاحتها فيحافظ بعض أفرادها على أسمائهم الملكية رغم أنها مجرد أسماء.

أما مضمون الكتاب وجوهره ولبّه وبرنامجه المتكامل بمحكمه ومتشابهه وعقيدته الإيمانية الرسالية الجهادية، فسوف تنتقل إلى الخط الثاني، إلى تلك البذرة المغروسة في أعماق الصحراء العربية، إلى الأميين متواضعي الظاهر، لتملأ صدورهم إيمانًا وقلوبهم إحسانًا.

متواضعو الظاهر، مثقلو الصدور بكلمة الله العظمى القرآنية، أولئك هم الأميون الوارثون للكتاب والحكمة والملك العظيم، أي لكل إرث إبراهيم الخليل عليه السلام.

وبتوريث «الأميين» وعزل أهل الكتاب، كانت السماء تصنع الثورة الكبرى وتختم التاريخ وتنهي الأمر وتعلن القرار الإلهي الأخير: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء: 105].

سوف يبقى هذا المعنى الشريف في التأكيد على القيمة الخُلقية للإنسان وعلى الصفة العملية فيه «الصالحون»، قاعدة تأسيس البنيان الراسخ الأركان المتصل بربّ الإنسان: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ ﴾ [التوبة: 109]. بنيان قائم على التقوى والإيمان، مرتوٍ بأنوار اليقين الوجودي الغيبي والظاهر على السواء، هو بالضرورة مناقض لمن: ﴿ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [التوبة: 109]. وبين ظنون البشر وعلى رأسهم «أهل الكتاب»، ويقين المؤمنين المستمد من رب العالمين، كان مطلوبًا أن تبنى إنسانية جديدة راشدة على اليقين، «البناء على اليقين»، وتخالف الظن فكيف بالوهم وكل أنواع التخمين؟

إن الثورة الإسلامية إذن ثورة قرآنية توحيدية قائمة على أهم قواعدها وهي الولاء لله وحده، والاستمداد من كتابه ومن سنة نبيه ﷺ فقط. وعلى أساس من هذا تولى النبي الأمي بناء الدولة الجديدة الحاملة للمشروع الإسلامي الحق القائم على مضادة الجاهلية العربية والكتابية على السواء.

إن ظهور الأميين كان إيذانا بانحدار «أهل الكتاب»، وإسقاط من حالفهم من رسل الضلالة والفساد. ذلك أنه لا سبيل لاستعلاء أهل الكتاب ومن والاهم على المؤمنين: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: 141]. ذلك أيضًا قانون تدافع الأمم الذي لا قدرة لأحد على ردّه. ومن مكّة، مركز السرّ الإلهي الروحي وقبلة الصلاة العظمى، انطلق المشروع الرسالي الإسلامي الأمي ليبني «المدينة»، أي الدولة المدنية الإسلامية.

لا يمكن بحال أن نغض الطرف عن المعنى العميق الذي تضمنه تغيير اسم يثرب إلى المدينة منذ استوطنها رسول الله ﷺ، كما لا يمكن بحال إغفال ما قام به عليه السلام من صهر المهاجرين الجدد والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم في بوتقة الأخوة الإيمانية وتلقيبهم جميعًا بالصحابة. إنّ الصحابة بناة الأمة الجديدة الذين ينصرون الله و رسوله هم نواة المجتمع الجديد الذين سيكون عليهم مسؤولية بناء «الدولة الأمة»[1].

1. الثورة والدولة الإسلامية

لماذا ربطنا بين ظهور الدولة الإسلامية النبوية الأمية و بين الثورة باعتبارها مصطلحًا حاملًا لكل معاني الاعتراض والرفض والهدم ومن ثَم الداعي إلى تغيير كل شيء؟

هناك أولًا الحقيقة الثابتة وهي أنّ كلمة السماء المختزلة في حقيقة أنه «لا اله إلاّ الله» والتي جاء كل الأنبياء عليهم السلام يدعون إليها، اعتراض صارخ على الشرك والكفر بكل أنواعهما وتجلياتهما، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25].

(1) قال تعالى يصفهم: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 8 - 9].

ثم إن شرائع السماء كلها جاءت محاربة لشرائع الأهواء، معتبرة أن أيّ توجيه لا ينبع من معين الكلمات الإلهية والأوامر الربانية هوى مضلّ لا بد من مقاومته وإدانته مهما تستر بأستار العقلانية وتخفى تحت شعارات «تحقيق مصالح الإنسانية». فالشريعة الإلهية ثورة على شرائع الأهواء وضلالات «العقول» البشرية، والقرآن الكريم يعتبر كل شريعة مخالفة لشريعة الله تعالى هوى مهما لجّ في ادّعاء الاحتماء بالعقل وادّعاء السعي إلى تحقيق المصلحة. قال تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ .. الآية ﴾ [المائدة: 49]. وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الجاثية: 18 - 19].

ولمّا كانت الشّريعة الإسلامية شريعة الله الخاتمة وكلمته الأخيرة إلى البشر، فقد جاءت بالدّرجة الأولى ثورة على التحريف الكتابي (اليهودي - النّصراني) لكلمة الله تعالى، وعلى تشويش نور الوحي واللغو فيه.

إنّ الرسالة القرآنية رسالة اعتراض وثورة على المسار الكتابي في كل تاريخه، هذا المسار الذي كان يفترض أن يحمل كلمة الله فلم يحمل منها سوى الاسم، وكان رجال أهل الكتاب مع كتابهم كحال الحمار الذي يحمل أسفارًا ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة: 5].

لذلك فعلينا أن نربط دائمًا بين ثلاث حقائق مركزية لفهم الانقلاب الإسلامي والثورة الإسلامية الكبرى وهي: **الأمة والدّولة والشريعة أو الرّسالة**.

فلمّا كانت الأمة التي نزل عليها الكتاب أمّة دعوة وصاحبة رسالة إلهية، رسالة الله تعالى الأخيرة، بكل المسؤولية الرسالية الثقيلة، فقد كان يجب أوّلا أن يتحوّل أهلها تحوّلًا ذاتيًا داخليًا من الولاء للأهل وللقبيلة إلى الولاء لله وللرّسول ﷺ وللمؤمنين، وكان ذلك العقد الإيماني هو الذي صيّرهم «أمّة» وليس شعبًا ولا قبيلة ولا مجتمعًا. إنّ مثل هذه المصطلحات غير قادرة على استيعاب مفهوم الأمّة؛ هذا المفهوم الجديد الذي نشأ بظهور الأميين وتكوّن دولتهم.

2. الأمّة – الدّولة – الشّريعة

ليست الأمّة مجرّد كلمة تقال، إنّها أحد أعظم إنجازات المشروع الرسالي الأمّي الذي استطاع أن ينشر ملّة إبراهيم الخليل عليه السّلام الذي كان أمة وحده: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةًۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: 120 – 123].

الأمة الحنيفة المجسّدة للمشروع الإبراهيمي الإيماني والكوني، القادرة على إمامة الناس بكلمة الله وتوحيدهم تحت راية الله تعالى، كانت مشروعًا إبراهيميًا في البدء، وكانت برنامجًا ينتظر التّنفيذ.

وقد عُهد بالبرنامج إلى بني إسرائيل ليكونوا حملة راية الأمة المؤمنة، وكان منهم ما كان من الرّدة والنّكوص والكفران إلى الحدّ الذي أصبحوا معه حملة المشروع النّقيض تمامًا، أي مشروع الكفر والتشتيت وتدمير العالم. وكان سرّ الفشل الإسرائيلي عدم اقتدار الكيان الذاتي الإسرائيلي على التّخلص من النفس الأمّارة بالسوء والتّرقي إلى مستوى النفس المطمئنّة، الأمر الذي اقتدر عليه الأميّون لمّا جاءتهم الرّسالة، فضحّوا بكل الولاءات ليصبح ولاؤهم لله ولرسوله وللمؤمنين؛ فأصبحوا أصحاب لقب «الذين آمنوا» وأيّ لقب هو لذي علم.

إنّ «الذين آمنوا»، هم وحدهم القادرون على تجاوز كل أنواع الاجتماع البدائي، القائم دائما على طلب الإنسان للمنافع الضرورية المادية المعاشية، إلى الاجتماع الرّسالي القائم على المبدأ والنّفع معًا.

ولذلك فلا سبيل إلى المقارنة بين دولة المؤمنين وسائر الدّول التي عرفتها الإنسانية. إنّ هذا إجحاف بحق العمران الجديد، وعدم تحليل حقيقي لحقيقة القفزة التي حقّقتها الإنسانية بظهور **الدولة الأمة**: دولة الشريعة الإلهية.

بتحقق الشّرط الذاتي الأساسي الذي تمثّل في تحوّل النفس الإنسانية من نفس أمّارة بالسوء إلى نفس مطمئنة، وذلك بفعل نظام التّديّن الإسلامي القرآني (إقامة الصّلاة وإيتاء الزكاة)، أصبح بالإمكان الحديث عن نظام عمران جديد يتجاوز مجرّد الاجتماع البشري الضروري الذي لئن بنى مدنا وإمبراطوريات ودولًا لا يحصيها العدّ، فلم يبن الدّولة الأمّة ولا المدنية الرسالية الأميّة.

إنّ الأمة إنجاز الأميين: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: 92]. ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: 52]. جاءت الآية الأولى في سورة الأنبياء لأنّ رسالة الله للإنسان ببناء الأمة كانت رسالة كونية عالمية دعيت إليها الإنسانية قاطبة على لسان الأنبياء عليهم السلام؛ ثم جاءت ثانية في سورة «المؤمنون» لتؤكّد على أنّ مثل هذا المشروع الكوني الكبير لا يمكن أن يحمله سوى المؤمنين الذين آمنوا بربّهم واتّقوه. إنّ الأمّة الواحدة لن تلتقي سوى على الرّب الواحد، وبدون هذا الالتقاء على الإيمان بالرّب الواحد فلا وجود لأمة بل نحن أمام اجتماع مهما كان نوعه وشكله. ولبناء أمة واحدة ذات ولاء واحد تكفّل الإيمان بتصفية كل الإرث الجاهلي الكفري - النفاقي الذي يستوطن قلب الإنسان فيؤسّس فيه «حميّة جاهلية» وعصبية اجتماعية قبليّة أو شعوبية. ثم تكفّل الإسلام بتقديم البرنامج الإلهي الذي ستلتقي حوله الأمّة الجديدة وهو الشّريعة «الإسلامية».

إنّ الأمّة المستجيبة لله وللرسول الذين دعواها إلى شريعة الله تعالى المستأمنة على كلمة الله تعالى وهي التي حملت الأمانة وتجافت عن الخيانة. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال: 27 - 28]. وهل سائر أنواع الاجتماع البشري إلاّ حول الأموال والأولاد؟ قال تعالى للأميين المؤمنين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال:

29]. بالقرآن الكريم (الإيمان)، والفرقان العظيم (الشريعة)، كانت النعمة الإلهية تتمّ على الأميين، وكان الدّين الكامل الذي حمله إبراهيم الخليل عليه السلام بذرة ومشروعًا، ينفّذ بواسطة محمد ﷺ والأميين ويقوم صرحه. وفي قلب الصّحراء العربية نهضت الأمة الأميّة، وتأسّست دولة الشّريعة الإلهية.

الفصل الخامس

برنامج الدولة الإسلامية

الخلافة والشريعة – الشريعة والأمة

يمكن القول إنه إذا كانت فترة الرسالة النبوية قد انقسمت إلى مرحلتين المرحلة المكيّة والمرحلة المدنية، فإنّ الفترة المكيّة كانت كما هو معلوم فترة بناء الإيمان واختبار صموده أمام الكفر والطغيان، حتى إذا تنشّأت من الأميين عصابة صادقة الإيمان، أذن الله تعالى بنصرها، وتهيأت الدّعوة لإنجاز الجزء الثاني من الرسالة وهو بناء الدولة الإسلامية، الأمر الذي تمّ بدخول الرسول ﷺ يثرب مؤيّدًا بأهلها من الأوس والخزرج، والبدء مباشرة برفع شعار المدنية الجديدة بتغيير اسم يثرب وتسميتها «المدينة»، وتغيير الولاء القبلي الذي كان أساس بنية الاجتماع الجاهلي، وترسيخ الولاء الإيماني في مقابله لتتأسس دولة الإسلام عمادها المهاجرون والأنصار الذين وصفوا بأخصّ صفات الالتزام الديني وبأعظم ما ضحّوا من أجله، فهؤلاء هاجروا وهؤلاء نصروا، ومنذئذ أصبح ميزان الاعتبار وقاعدة الشرف ليس مدى التوغل في عروق الأنساب «الشريفة» بل مدى القرب من الله تعالى والتّضحية في سبيله.

دولة المشروع الإسلامي أو بالأحرى دولة الشريعة الإسلامية، تلك هي الدولة التي نحتها الرسول ﷺ في تلك البيئة ما كانت لتعرف سوى القبلية ولاء والعصبية محرّكًا والقيم الجاهلية خُلقًا.

ودولة الإسلام باختصار هي دولة الشريعة.إنها الدولة التي تعظّم الله تعالى وتأتمر بأمره: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية: 18]. وهكذا توالت الآيات تقدّم الأحكام الشرعية ما بين مجملة ومفصّلة،عامة وخاصة، وكانت الدولة الجديدة تُصنع على عين الله تعالى لتكون أنموذجًا سوف يحتذي به الخلفاء الرّاشدون المهديون. إنّ من يأتي بعد الرسول ﷺ لن يكون له اسم أو لقب أجدر من لقب «الخليفة». هو باختصار خليفة رسول الله ﷺ في إقامة دولة الإسلام بواسطة الشريعة الإلهية المطهّرة. قال ابن خلدون معرّفًا الخلافة: «هي حمل الكافة على مقتضى النّظر الشّرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها. إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند

الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة. فهي (الخلافة) في الحقيقة: نيابة عن صاحب الشّرع (الرسول ﷺ). في حراسة الدين وسياسة الدنيا به»[1].

ليس يوجد مثل هذا التعريف في وضوحه وتعريفه بنظام السياسة الإسلامية وما استجدّ في الكون بظهور الشريعة الخاتمة.

ذلك أنّ نظام الحياة البشرية اقتضى بالفطرة وبأساس الترتيب الإلهي أن يحيا الإنسان ضمن جماعة تكنفه وتحقق مطالبه المتعددة فتأسس الملك الحافظ لنظام الاجتماع الإنساني. وكان نظام المُلك أي «سياسة الجماعة»، متكيّفا دائما بحسب نوع الجماعة المنضوية تحته، فالجماعة التي تغلّبت عليها الأهواء (الأنفس الأمّارة بالسوء)، أنتجت دائمًا مُلكًا استبداديًا قهريًا حيث لا ينفع للاجتماع الوحشي سوى نظام القهر والإخضاع. حتى إذا تقدّمت البشرية في الفهم ورضيت بالخضوع للنظام، وتجافت عن الأهواء بعض تجافٍ فلامت أنفسها على شرّ الصّنائع ومدحت بديع الطبائع، ظهرت الأنفس اللوامة لتقيم نظام العمران المدني الخاضع لأنواع القوانين والمقيم لأنظمة الزجر بحسب ما يظنّه أهل السلطان فيها وأصحاب الحل والعقد، نُظما عادلة وشرائع رادعة.

وضمن الحالين، حال التوحش المولّد بالضرورة للسياسة الاستبدادية، وحال التمدّن المقيم للسياسة العقلية وللقوانين الوضعية، نحن أمام نظام الاجتماع البشري الذي لا يؤلف الجماعة إلاّ من أجل قضاء مصالح العيش وتحقيق ما تطلبه الفطرة وما تضطرّ إليه غرائز البشر من طلب البقاء والتوسع في أسباب العيش.

فإذا تقدّمت الإنسانية في الفهم، وقبلت برسالة الدين الإلهي وبجوهر تعاليم السمّاء، وآمنت بعد الكفران، ورضيت بالانقياد لشريعة الإله خالق السماوات والأرض،

---

(1) لم يرسل ﷺ إلى أولئك الملوك اعتباطًا ولا عبثًا، وإنّما تنبيهًا إلى ضرورة مراجعة نظام عبادتهم وعمرانهم على السواء، فلمّا لم يفعلوا غمرهم سيل الإسلام الجارف وتم تدميرهم في عهد الخلافة الرّاشدة.

وأصبحت الأنفس مطمئنة إلى ما أريد بها ولها، وأسلمت قيادها لمن خلقها، تهيأت عندئذ إلى بلوغ أرقى مستويات الاجتماع البشري أي لتأسيس «الأمة» التي يلتقي أفرادها على المبادئ والمنافع معا وليس فقط على مجرّد المنافع.

إنّ ظهور «الأمة» وهو مصطلح شديد الخصوصية لم تقع العناية بتحليله كما يجب، لن يتم إلاّ إذا أصبحت الجماعة منضوية تحت نظام معرفي ثم خُلقي واحد: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [المؤمنون: 52].

ويستحيل أن يتحقق هذا في دائرة البشر إلاّ بالنسبة للمؤمنين .إنّ المؤمنين وحدهم قادرون على تأسيس الأمة ذات المبادئ الواحدة والمصالح الواحدة.

ويمكن تلخيص نظام العمران والاجتماع البشري بحسب الرسم التالي:

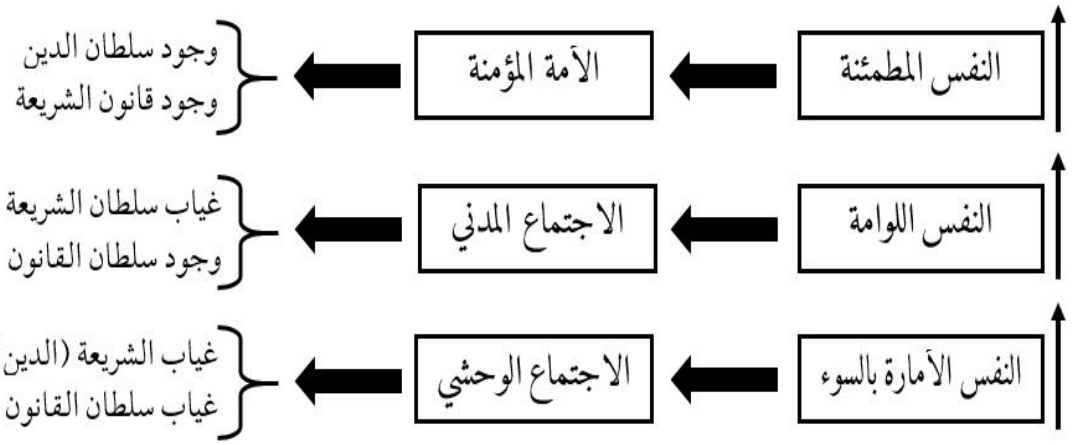

كان من حيث المبدأ قد رُتّب للإنسانية أن تبدأ بالترقي نحو مرتبة «الدّولة – الأمة» منذ المرحلة الموسوية؛ فمنذ نزول التوراة ومجيء موسى عليه السلام، أصبح التوجيه الإلهي المطلوب هو تدمير سياسة الاستبداد أي أنموذج الدولة الفرعونية كشكل أصفى له، وإقامة دولة الشريعة أي أمة الإسلام المؤتلفُ أفرادها إيمانيًا وخُلقيًا (نظام الاعتقاد-نظام العمل).

وكان على بني إسرائيل (قادة أهل الكتاب)، أن يحملوا هذا المشروع الكبير، مشروع إقامة الدولة الأمة، دولة الشريعة والكتاب، وكان دفع السماء لهم إلى الخروج من أرض الاستبداد (الدولة الفرعونية الاستبدادية)، نحو الأرض التي كتب الله لهم حول المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله من أجل هذا البرنامج بالذات الذي سطّرته لهم ألواح التوراة. ولمّا كانت هذه النقلة صعبة شديدة، فقد أيّد الله بني إسرائيل بالمعجزة تلو الأخرى، فصنع لهم من العجائب وفتح لهم من السبل ما تذهل له الأنفس العاقلة. غير أنّ بني إسرائيل لم يكونوا أبدًا على نفس الخط الموسوي الرسالي، وجابهوا موسى عليه السلام بالكفران، وقالوا له بكل وضوح: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: 24]. فكان أن حرّمت عليهم الأرض المقدّسة أربعين سنة ثم دخلوها بتقدير الله تعالى لا ليبنوا أمة الإسلام المطيعة لربّها، بل فقط لتتم كلمة الله الحسنى على أمّة منهم صدقت وصبرت، أمّا عموم شعب إسرائيل فقد كان خارج دائرة الاستجابة.

ورغم أنّ التجربة الإسرائيلية أيّدت بالأنبياء الملوك دعما للتجربة وإسنادًا إلهيًا عجيبًا، إلاّ أنّ الدولة الأمة لم تقم، وكان أقصى ما بلغته في عهد سليمان النبي - الملك عليه السلام الذي وُهب مُلكًا عظيمًا منّة من الله تعالى عليه، وليس بفضل ائتلاف بني إسرائيل حوله.

إنّ التأييد الإلهي لسليمان عليه السلام وتسخير القوى الجنيّة وأنواع الحيوان لسلطانه كان منّة وهبة من الله تعالى له: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [ص: 35]، وإشارة إلى بني إسرائيل أنّ الله تعالى غني عنهم في نصرة عبيده. إنه انتصار السماء للخلفاء حملة الشريعة حتى لو لم تنصرهم شعوبهم الضالة.

عجز أهل الكتاب عن بناء الأمة إذن، وارتدّوا إلى الكفران، ولم يفلحوا في تغيير ما بأنفسهم بواسطة الإيمان؛ فبقي مشروع الأمة مجرّد برنامج ينتظر التحقيق. قال تعالى

معرّضًا بفشل أهل الكتاب: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: 110].

فاز المؤمنون بلقب خير أمة أخرجت للناس لما توفّر فيهم الشرطان الشرط الإيماني (تؤمنون بالله) والشرط الخلقي (العمل الصالح): «تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر»، فجسّدوا لمّا اطمأنّت أنفسهم إلى ربها، الأنموذج الرسالي للدولة - الأمة، واستطاعوا بما جبل عليه الطبع الأمي من الانقياد والخضوع والفراغ من مظاهر الاستكبار المعرفي، أن يعبّدوا أنفسهم للشريعة، وأن يقبلوا بأحكام الدين كاملة، فتم لهم وراثة آل إبراهيم وأوتوا **«الكتاب والحكمة والملك العظيم»**.

إنّ بناء الدولة - الأمة ذات النظام الإلهي، الخاضعة بالتّشريع القرآني لنفس ما خضعت له كل الكائنات الأخرى بالطّبع والجبلّة أي بالفطرة الخِلْقية الوجودية، لكلمة الله تعالى، ليلتقي الخَلق والأمر، الخَلق الوجودي بالأمر التّشريعيّ، يعدّ أرقى ما بلغه وما يمكن أن يبلغه نظام العمران الإنساني عبر تاريخ الإنسانية قاطبة، وهو فعلا غاية التاريخ ونهايته.

إن امتحان الإنسانية يتمثل في أن تبلغ بالطاعة ما بلغته الكائنات الأخرى بالإكراه الطبعي، فتأتي طوعا بالرضا مع من جاء طوعا بالطّبع والجبلّة الخِلقية، وعندئذ تتحقق فيها فضيلة العلم الإلهي الذي زوّدت به وتصل إلى الفضل الإلهي الذي وعدت به. **إنّ الشريعة هي الوجه الأخلاقي للطبيعة**، ومن خلالها ينصهر الإنسان مع الكون الرائع السّاجد المطيع لربّه سبحانه، ولذلك اقتدر أبناء الغلام الحليم على بلوغ هذا الأفق الإنساني الراقي في حين صدّ عنه بقية البشر وفي مقدّمتهم أهل الكتاب الذين كانوا من حيث الأصل مؤهلّين لأن يبلغوه قبل غيرهم.

وإذا كنا قد حلّلنا مصطلح «الأمة» وبيّنا أنه ليس بمعنى كلمة «المجتمع» إلاّ من حيث

الظاهر، فلنقل كذلك إنّ مصطلح «الخلافة» ليس بمعنى كلمة «المُلك» إلاّ من حيث الظاهر.

فما المقصود بالخلافة ؟

إنّ الخلافة وهي لغة النيابة، اضطلاع بمهمة النبي الأمي ﷺ بين المؤمنين، ونيابة عنه في «حراسة الدين وسياسة الدنيا به» كما قال ابن خلدون رحمه الله.

وباعتبارها كذلك، فلا يمكن بحال أن يكون مصطلح الخلافة رديفًا لغويًا لمصطلح الملك أي ولاية أمور الناس بأيّ نوع من أنواع الولاية.

إنّها ولاية خاصة، وسير على نهج خاص لتحقيق برنامج خاص وبعبارة أخرى إنها نظام سياسي جديد بكل ما يعرفه النظام السياسي من مفردات وبما لا يعرفه أيضًا.

إنّها إمامة المتوجّهين إلى نيل خير الدارين، الدار الدنيا والدار الآخرة، وليس الدار الدنيا فقط. ولمّا كانت كذلك، فإنّ كل مصطلحات التولية وتنظيم السلطات وتحقيق المقاصد والغايات سوف لن يتمّ استجلابها من أمة أخرى ولا من أيّ شعب آخر لأنها ببساطة لا توجد لدى شعوب الأرض الأخرى.

فما بين الكسروية الفارسية والقيصرية الرومية وملك المقوقس القبطي[1]، ظهرت النبوة الشريفة ثم الخلافة الراشدة لتقيم نظام الخلافة الإسلامية ولتدعو إليه الأمم.

ولكي نتعمّق فهم نظام الخلافة لا بدّ أن نربطه بأمور ثلاثة هي: الشورى - الشريعة - الأمة.

---

(1) لم يرسل ﷺ إلى أولئك الملوك اعتباطًا ولا عبثًا، وإنّما تنبيهًا إلى ضرورة مراجعة نظام عبادتهم وعمرانهم على السواء، فلمّا لم يفعلوا غمرهم سيل الإسلام الجارف وتم تدميرهم في عهد الخلافة الرّاشدة.

أ. الشورى

أمّا الشورى فهي القاعدة السياسية وأساس مصدر الشرعية في بناء الحكومة والإمارة الاستخلافية. وهي مبدأ قرآني سوّرته سورة الشورى فلا سبيل إلى تضييعه مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الشورى: 38]. تؤكد الآية الكريمة على أمرين، الأول أنّ الاستجابة للرب سبحانه لن تكون إلاّ بأمور من أهمها الشورى بعد الصلاة وقبل الزكاة.

والأمر الثاني أنّ الشورى هي النظام السياسي الجامع بين الجهد الإيماني (إقامة الصلاة) والجهد الاقتصادي (إيتاء الزكاة). وهذا إذا كان فيه الدليل القاطع على أنّ الخلافة الشورية ليست من قبل السنن ولا من قبل النوافل والمستحبات أو فضائل الأعمال، ففيه أيضًا بيان قاطع لحقيقة النظام السياسي الإسلامي وكونه نظامًا استخلافيًا شوريًا أو لا يكون.

إنّ كل التنظيرات للسلطان المتغلب بالسيف ولسائر أشكال النظم الملكية الاستبدادية رجاء إدخالها على شرائع الإسلام وجعلها من صلب التنظيمات الدينية لا تعدو كونها قراءات تبريرية فاشلة لا بل خائنة في كثير من الأحيان، لا همّ لها إلاّ تعبيد العبيد للعبيد لا لرب العبيد.

فما معنى كون الخلافة شورية؟ معنى ذلك أولًا أنها يجب أن لا تكون ملكًا وراثيًا، لأن الملك الوراثي لا شورى فيه ولا اختيار بل تنصيب وتوريث. وهذا ما تبيّن من تولي راشدي الخلفاء رضي الله عنهم لمنصب الخلافة؛ فلم يفكّروا في إسنادها لقريب ولم يقصوا عنها من هو بالدماء غريب. وكان همّهم اختيار من يكون الأقرب إلى الفلاح في خلافة رسول الله ﷺ، دليل ذلك مسارعتهم إلى تولية الصدّيق أبي بكر رضي الله عنه مسترشدين بتولية الرسول ﷺ إيّاه إمامة الصلاة أيام مرض وفاته عليه السلام.

ثم إنّ ما أحاط بتولي الخلفاء الراشدين من اجتماعات وشورى فعلية، ثم دعم كل ذلك «بالبيعة» وهي العهد الرضائي من قبل المستخلَف عليهم لأميرهم على الطاعة والعون على القيام بأعباء الإسلام، هذه الأعمال أثبتت أنّ المؤمنين أهل القرن الأول من الصحابة، وهم في الرشاد من هم، كانوا واعين بأنّ نظام النبوّة الذي بناه الإسلام لا يستقيم مع أيّ نوع من أنواع الإكراه والاستبداد والاستئثار بالأمر، كل ذلك كانوا يرونه ضربًا من الخيانة وانتهاب النهبة التي لا تدل على رشاد ولا تهدي إلى فلاح. إن كل أنواع الاستبداد والإكراه بل والملكية المزيّنة بالعروش والطغراء المُخفية لسقطة التوريث، ليست أنظمة راشدة ولا مشروعية لها في دين الإسلام الذي نهى عن تخطّي الرقاب، وأن يجلس المؤمن حيثما انتهى إليه.

ولمّا كانت الشّورى كلمة واسعة، فإنّ استنباط الصور الشورية والكيفيات الإجرائية في إقامتها وتطبيقها أمر يتسع له الإسلام ويرضاه المؤمنون. ولا بأس بالتنويه بالنظام الشورى الذي قام إبّان العهد الراشدي الذي توفرت فيه شورى أهل الحلّ والعقد باعتبارهم قادة أهل الرأي ونخبة المجتهدين وخلاصة الأتقياء المرضيين الذين استفاضت معرفة الناس بهم، وعرف لهم دورهم وسابقتهم وجهادهم. وتدعم هذه الشورى الرفيعة بالبيعة العامة التي يدعى إليها جميع المؤمنين والمؤمنات.

أن يترشح من خلال شورى أهل الحل والعقد المعروفة صنائعُهم، الظاهر علمهم، والمنشورة فضائلهم رجل تختاره أغلبيتهم ثم يقدّم للاقتراع العام بعد ذلك ليقول المؤمنون والمؤمنات رأيهم فيه باعتبار أن الاقتراع عبر الانتخاب وجه مستجد وممكن اليوم لتحقيق البيعة الواسعة؛ مثل هذا التنظيم والترتيب العملي لكيفية تنظيم الخلافة وإقامتها أمر حسن له ما يؤكّده وما يدعمه في سير الخلفاء الراشدين القائمين بأمر السياسة في عهدهم،العارفين بحقائق الحكم والولاية على الأمة، بل هو عين الكيفية التنظيمية للخلافة على عهدهم.

مثل هذا التنظيم القوي المتين الذي يضمن عدم المغامرة بمنصب الخلافة وجعله فيمن

هبّ ودبّ دون تمحيص واحتياط، ويضمن في الوقت نفسه الاختيار الراشد والحر الذي يقوم على أوفر قدر من الإجماع، كفيل بتجنّب العديد من المزالق بل الفتن التي قد تذهب بآمال الأمة وتهدد بالتالي بتغيير برنامجها الإلهي الرسالي.

وإذا كان أمر الاقتراع العام المباشر من قبل المؤمنين والمؤمنات أمرًا واضحًا هيّنًا لا غبار عليه تفي به التنظيمات والترتيبات الانتخابية، فإنّ شيئًا من الغموض قد يطال كيفية تأسيس مجلس أهل الحل والعقد، بل تتجاوز إلى تعريف هذه الطائفة من المؤمنين في حدّ ذاتها. فمن هم أهل الحل والعقد؟

بدون إطالة أقول إنهم المجاهدون المجتهدون الذين بذلوا التضحيات في سبيل نصرة الأمة وإقامة مشروعها. ودليل ذلك من كتاب الله تعالى قوله: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: 122].

أهل النفير إلى الجهاد بأنفسهم وأموالهم، الذين محّصت وفاءهم لمشروع الأمة ميادينُ الجهاد ومواطن البذل، ثم أهل العلم الشّرعي الذين لم يكتموا منه شيئًا وجنّدوا أنفسهم لإنذار قومهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، هم أولو أمر هذه الأمة وأئمتها، وهم جديرون بأن ينتخبوا بأيّ نوع من أنواع الانتخاب وأن يُرشّحوا بأيّ نوع من أنواع التزكية وفي الأمر متّسع إلاّ أنني لا أقدّم على التزكية الشعبية العامة تزكية أخرى، فأهل مكّة أدرى بشعابها.

إنّ من بذلوا أنفسهم وأموالهم في سبيل برنامج الإسلام (المجاهدون)، ثم وفي درجة ثانية من بذلوا لياليهم في سبيل التفقه في الدين، هم الأولى بأن ينتخبوا منهم خليفة لن يكون بالضرورة سوى من توفرت فيه الصّفتان معا: أعني الجهاد بالمال والنفس والاجتهاد العلمي، ولن تعدم الأمة نخبة من هؤلاء.

هذا وإنّ المؤمنين ليسوا مأذونين بأي حال من الأحوال أن يتّخذوا نظامًا سياسيًا خارج

النظام الذي أجمعت عليه الأمة في قرن رشدها الأول (قرن الصّحابة رضي الله عنهم)؛ وإنّ أيّ تغيير في ترتيبات النظام السياسي الإسلامي سواء على مستوى التسمية «الخلافة» ومن باب أولى على مستوى المضمون والمنهج إضرار بأصول الشرع وبمقاصده وتضييع لخصوصية أمة الإسلام وفرادة تنظيماتها.

إنّ الاستعاضة عن نظام الخلافة بأيّ نظام آخر مهما كان من جاذبيته مثل النظام الديمقراطي ذي الأصول اليونانية ثم اليهودية النصرانية يؤدي بالضرورة إلى الانحراف عن أصالة الشرع وخصوصية ترتيباته وأحكامه.

وإذا كان في النظام الديمقراطي ما يمدح ويستحق الإشادة فيم لو قورن مع أنظمة الاستبداد والاستعباد، فليس معنى ذلك أنّه قابل لأن يضطلع بمهمّة السياسة الإلهية التي قام لأجلها نظام الخلافة.

إنّ الشورى السياسية التي تمثّل أحد أركان نظام الخلافة الإسلامية كفيلة بالتوقي من أساليب الاستبداد وأنظمة الاستعباد.

إلاّ أنني أؤكّد أنّ للمصطلح ثقله وفرادته وخصوصيته بل وأثره. إنّ المصطلحات مشاعر المعاني تماما مثل مشاعر الحج التي يجدها الحاج على طريقه، فإذا وقع التلاعب بالأسماء والتهاون في شأنها ،فإنّ التلاعب بالمسميّات قادم.

ب. الشريعة

«الخلافة» نظام سياسي جوهره ولبّ معناه النيابة عن الرسول ﷺ في تطبيق شريعة الإسلام الجامعة لكل أعمال الإنسان فردا وأمة. وقد أسبقنا القول أنّ الدين الإسلامي الذي جاء بما يحيي الإنسان روحًا وجسدًا، فردًا وأمة، توجّه ببرنامج الإيمان نحو الروح (العقل)، وتوجّه ببرنامج الإسلام نحو الجسد. فالإيمان هو العقيدة والإسلام هو الشّريعة ثم توجّه نحو المؤمنين بدعوتهم إلى إعلان الشهادتين: شهادة الإيمان وشهادة الإسلام.

وهذا الجمع بين الشّهادتين هو المقصود الأول بمصطلح التوحيد. إنّ دين التّوحيد الأمّي جاء وأحد أعلى أهدافه ومراميه أن يدمّر كل أنواع الفصام النكد بين كل الثّنائيات التي يحيا ضمنها الإنسان والتي تعدّ سر نظام خِلقته الفطرية. فلما كان من قضاء الله تعالى أن يضمّ البشر إلى نظام الخلق الرحماني الروحي الذي يعدّ عماد بنية الخلق الكوني، كان من رحمته سبحانه أن يرسل إلى البشر التعليم (الهدى)، الذي يهديهم إلى تحقيق أفضل كيفية في الاندماج ضمن نظام الخلق الكوني الرحماني.

إنّ لبّ برنامج الشيطان مع الإنسان أن يغريه إمّا بالتأله الكاذب برفض الزوجية من أساسها وإعلان سلطان «الأنا» في مطلق حضورها الوهمي تمامًا كما فعل هو في ادّعائه للعلم، وكانت هذه اللعنة الأولى قد شكّلت قاعدة السقوط الاعتقادي حيث إنّ الأنا المخلوقة لا يمكن لها تكوينيًا أن تكون سوى محمول على موضوع ومضاف على مضاف إليه وخبر على مبتدأ، وباختصار إنّ الأنا البشرية شأن كل مخلوق: عبد لربّ. فلمّا جهر «بالاعتبار» الذي جعله يقيم سلطان الأنا فقال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: 12]، تبيّن أنّ ميزانه الاعتباري هو الذي ورّطه في تجاوز حدّه الخَلْقي.

إنّ نظام الاعتبار هو «الشريعة» بالنسبة إلى العقيدة. لأنّ الشّريعة في العمق تعنى إقامة الاعتبارات وتقدير الحظوظ والمسؤوليات وتوزيع الألقاب والمهمّات. إنّها القدر المساوق للقضاء والترتيب التوجيهي والتدبير الإلهي والهدى الرّباني الداعم لنظام الخلق الإلهي. قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ [القمر: 49]. وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الحجر: 21].

إنّ من خلق هو من قدّر. ومن أعطى كل شيء خلقه ثم هدى واحد؛ قال موسى عليه السّلام معرفًا بربه ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: 50]. وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: 2].

وإذ خلق سبحانه، فقد كان من تمام الإنعام والحكمة الجليلة أن يهدي أي أن ينظّم برنامج المخلوق الذي خلقه. فما كان الله سبحانه ليخلق شيئًا عبثًا، وترك الشيء المخلوق دون برنامج ودون نظام حياة عين العبث.

وإذا انتظم كل مخلوق ضمن برنامج هداية مسطّر حكيم، فقد كان من تمام الرحمة بالإنسان أن يقدّم الإله الخالق برنامج هدايته أي «شريعة» (طريقة - نظامًا - منهجًا)، تهديه إلى الاستفادة من وجوده وتحقيق الغاية من خلقه: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: 115].

إنّ «الشّريعة» المنزّلة هي الكيفية الإلهية الهادية إلى تحقيق الرجعى المظفّرة إلى جنة الربّ سبحانه.

وإذا كان الأمر كذلك، فإنّ أي برنامج غير برنامج الرب سبحانه يعدّ هوى مضلاّ وتحكّما كفريًا وتعدّيًا لا مشروعًا وظلمًا عظيمًا من الإنسان لنفسه لأنه سيؤديه إلى تدمير نفسه وتضييع فائدة وجودها وغايته.

ذلك بالضبط معنى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية: 18]. وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة: 49].

ولمّا كانت العقيدة بيانا للحقيقة التي تجعل الإنسان عاقلًا، فإنّ الشريعة بيان للطريقة (السياسة)، التي تجعل الإنسان قادرًا (مريدًا).

إنّ الإنسان العاقل (الفاهم)، القادر على السّير ضمن أفق فهمه (المريد)، هو الإنسان السوي الذي جاء دين التوحيد لتأسيس بنيانه.

التوحيد بين العقيدة والشريعة الذي يهدف إلى توحيد الروح مع الجسد وذلك ضمن نظام التشريع الرحماني القادر على توحيد مسار الإنسان مع مسار الكون، هو عين

التوحيد وجوهره، وهو أصحّ التفاسير لمعنى قولنا: «**أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أنّ محمدًا رسول الله**».

إنّ عقيدة بدون شريعة، علم بلا عمل، روح بدون جسد، برنامج نظري دون هيئة عملية، مذكّر بدون مؤنث، إنه باختصار منطقة لعنة الشيطان وليس مجال رحمة الرحمن.

العجيب أن لا يتفطّن علماء الإسلام وقبل ذلك أهله أجمعون إلى أنّ دين الإسلام يصبح لا معنى له إذا انفصل الاعتقاد فيه عن التّشريع، **والأعجب أن لا ينتبهوا إلى أنّ معنى التشريع هو بالضبط المعنى المقصود بالسياسة**.

إنّ الشريعة سياسة الإنسان في الدّنيا ليحظى بخيرات الدنيا والآخرة.

لست أزعم أنّي آت بالجديد، كما أنّي لا أنكر أنّ تراث المسلمين يعجّ بالحديث عن التوحيد وعن قيمة الشّريعة،إلاّ أنّي أحبّ أن أنبّه فعلا إلى أنه وبفعل الإرث الجاهلي العربي وكذلك بفعل التأثير اليهودي النصراني، ثم بفعل التشيع الكاذب والتّصوّف الدّعي استطاعت بدعة الفصل بين العقيدة والشّريعة،أي برنامج الرّدة عن دين التوحيد أن تؤثّر بالغ التأثير وأن ترجع ببالغ الضرر على دين التوحيد الصّافي الذي منّ الله تعالى به على الأميين. إنّ «الجهالة» العربية والكسروية الشعوبية الفارسية قد أعملتا معاولهما مبكّرًا في نظام السياسة الأميّة، الأولى بإشعال فتيل «حميّة الجاهلية»، والثانية ببثّ تعاليم السياسة الكسروية الصنميّة التي ليست سوى صورة أخرى من صور الفرعونية البشرية الكونية، أي نظام الاستبداد وتأليه الحكّام «السّادة والكبراء».

وإذا كان الصدّيق رضي الله عنه (المؤمن)، والفاروق رضي الله عنه(المتشرع)، قد استطاعا بتأييد من الله تعالى أن يقفا سدّا منيعا أمام محاولات الغزو المبكّر والرّدة نحو الجاهلية والسياسة الكسروية، فإنّ دبيب الفتنة بدأ منذ عهد ذي النورين عثمان بن عفّان رضي الله عنه، ثم آذن مستصغر الشّرر بأن يصبح نارًا حارقة في عهد علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه.

ليس غريبًا أن يكون حزبا التآمر على نظام السياسة الإسلامية: الخوارج ورثة الجاهلية العربية وبالتحديد الأعرابية[1]، والفرس الشعوبيون[2] ورثة الكسروية الفرعونية الصنمية الذين لا يخضعون إلاّ للحاكم -الإله - الصنم المعبود. الخوارج رافعو شعار «لا حكم إلا لله»، والشيعة رافعو شعار «الوصية لآل البيت»، استطاعوا وبضغط رهيب مدعوم بمؤامرات يهودية معروفة، أن يعملوا سهام حقدهم على الإسلام الذي نقض مشروعهم من أساسه بأن قضى على مفهومهم للشرعية أصلًا، أي على برنامجهم السياسي القائم على عصبية القبيلة «العِرق» لدى الخوارج، وعلوية «النسب الشريف» لدى الشيعة. ووراء كلا التيارين كانت تكمن حركة الرّدة اليهودية التي أبت أن يُستصنع النظام السياسي من وحي الحكم الإلهي بعد أن جاهرت بالعجز عن الإيمان وبالنكران لرب الإنسان: «اذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون» (المائدة).

إنّ السياسة في وجهها الحاكم قد تصبح مُلكا وذلك بفعل غلبة العصبية واستفحال الولاء لذي الشوكة والركون إلى صاحب المنعة استجابة إلى قواعد الجبلّة ونظام الفطرة، وهذا ما حصل في الدولة الإسلامية التي سريعًا ما طوت عهد الخلافة الراشدة ليستقيم سلطانها على قاعدة العصبية والملك.وهذا التحوّل لئن لم يحظ بما يدفع إلى حمده والشّكر لصانعه، فإنّه حوصر بالأساس المتين لدين الإسلام وهو الشريعة.فقد كان على ملوك بني أمية وبني العباس ومن تغلّب بعد ذلك من العجم فرسا كانوا أم تركا، أن يعلنوا دائما أنهم تحت سلطان الشريعة، وأنّ نظام الحكم إنما هو على قاعدة من أوامر الله تعالى ونواهيه.

فعلًا لقد كانت الشريعة الإسلامية بمعناها الحقيقي الواسع قاعدة نظام الحكم ودستور

---

(1) حتى لا تظلم طائفة الأعراب الذين قال فيهم الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: 100].

(2) حتى لا تظلم طائفة منهم آمنت وجاهدت ونشرت الخير والعلم في ربوع العالم الإسلامي أولئك على خطى سلمان رضي الله عنه أهل علم وحكمة وسابقة وفضل.

الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية للمسلمين الذين لم يكونوا يتصوّرون أنهم سيخضعون لنظام غير نظام الإسلام ولشريعة أخرى غير شريعتهم الدينية القرآنية.

وفي أكناف الشريعة المطهّرة اكتمل الفضل الإسلامي فانتشرت كلمة التوحيد في الأمم ومُحي من أثر الشرك الشيء الكثير، وتوسّعت الأرزاق وازدهرت العلوم واستقرّ القضاء على الحكم بما أنزل الله تعالى.

ولم يكن حكّام المسلمين مهما لجّ بهم الأمر في البعاد عن خُلق صاحب الشّريعة ﷺ بسبب فسقهم، يسعون إلى نقض جوهر الخلافة ومضمون سياستها أي الحكم بين الناس بما أنزل الله، بل كانت بعض دول الإسلام، وبفعل تطلّعها إلى ما كان عليه نظام الخلافة الراشدة من الأكملية، تستعيد في كثير من الأحيان رونق السياسة الأولى وطريقتها المثلى، أي كدولة دعوة وفقه وجهاد[1].

كانت الخلافة دائمًا قيّمًا على الشريعة يحفظها ويدين لها ويقيم سلطانها بين الناس؛ وكان الخلفاء لئن استظهروا بالعصبية وأقاموا عليها الملك، يَهدون بأمر الشريعة و يقيمون أحكامها في نظم حياة المسلمين كافة، في القضاء وفي التعليم وفي الاقتصاد.. فكان المُلك أقرب إلى الخلافة منه إلى أنظمة الملك الاستبدادي الوراثي. وباختصار، حفظ نظام الخلافة الإسلامي إلى آخر عهد من عهوده (العهد العثماني) الشريعة الإسلامية التي مثلت جوهر السياسة فيه وروح قوانينه وأحكامه. بل لم يكن من معنى للخلافة دائما سوي كونها نيابة عن صاحب الشرع[2].

ولمّا تمّ لليهود والنصارى ما تم من إسقاط الخلافة متحالفين مع الجاهلية العربية الحديثة، لم يحظ العرب بالملك الذي يحبون ولو كان على هامش الفرس والروم كما

(1) أغلب دول دار الإسلام كانت حاملة لهذا المشروع الرسالي لا سيما في بداية تأسيسها وفي عنفوان قوتها ويكفي أن نذكر دولة المرابطين ودولة الموحدين بالمغرب الإسلامي والدولة العثمانية في عهد فاتحيها الأول..

(2) ابن خلدون عبد الرحمن – المقدمة – ج1 – ص 244.

كانوا يفعلون في الجاهلية، و إنما تم على أيديهم وأيدي أعدائهم ذهاب ملكهم ودينهم علي السواء، لأنه لا معني لرفع الخلافة سوى رفع الشريعة المطهرة وزوال أثرها بذهاب سلطانها الحافظ لها أي الخلافة.

ألغيت الخلافة الإسلامية، وزال سلطان الشريعة، وظهرت شريعة إسرائيل من جديد القائمة علي أخلاط من ميراث الإلحاد والكفر والنفاق مشوب بأوهام دينية ودعوى يهودية «كاذبة» بوراثة إبراهيم الخليل عليه السلام وباستعادة مجد الآباء (الأمة الأولى)، والأبناء (الأمة الثانية:هيكل سليمان).

وبانتهاء عهد الخلافة ورفع سلطان الشريعة، أذن عهد النفاق العربي بالظهور واستعاد العرب جاهليتهم القيمية المناقضة لخُلقية الحِلم الإسماعيلي الشريف، وتهيئوا سياسيًا للخضوع لليهود والنصارى، وقالوا لأمم الأرض: هيت لك.

ج. الأمة:

لا يمكن للنظام السياسي الإسلامي أن يتأسس على قاعدة القطرية ولا الوطنية القومية، ولا على أي نوع من أنواع أنظمة الاجتماع التي عرفها البشر، بل لا بد له من أمة تحمله وتطبق برنامجه وتنشر دعوته. إن كونية البرنامج السياسي الإسلامي أحد أبرز وأهم خصائصه. فلما كانت السياسة خادمة للدين وقائمة عليه، وكان من ضرورات إقامة الدين نشره في ربوع الأرض، وكان من أصول مبادئه المساواة بين الناس و دعوتهم جميعًا إلى كلمة الله الواحدة مصداقًا لقوله تعالى للرسول ﷺ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سبأ: 28]. ورث الخلفاء البرنامج النبوي في نشر الدعوة الإسلامية وإقامة دولة الله في سائر أركان الأرض. وإذا كان من سنن الله تعالى أن القوة والضعف تتناوبان الأفراد كما الأمم، وأن الأيام دول مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: 140]، فإن أي استئناف حضاري تاريخي، وأي نهضة تنبعث في أرض الإسلام يجب أن تجعل برنامجها الجهاد والاجتهاد من أجل استنهاض الأمة. وإذا كان من سنن الله تعالى أيضًا أن البعث إنما يتم على آجال وبحسب أقدار مقدورة، فإن انطلاق مشروع التجديد

في قُطر ما يجب أن يَحتسب في برنامجه الشامل أن النهضة الحقيقية لن تتم بدون استنهاض الجسد الإسلامي بأكمله. باختصار، إن البرنامج القطري الذي سال فيه حبر كثير وعُمّد باسم «الدولة الوطنية» لم يكن سوى ردة جاهلية قبلية صنعها كيد اليهود والنصارى بالمسلمين، ونفذها عسكر الاستبداد وصنعوا لها أعلامًا وأناشيدًا «وطنية» سرعان ما تبين أنها لا تحوي سوى نوايا الخيانة، ولا تخفي وراء أستارها سوى خناجر الغدر بكل ماهو وطني حقيقي، وما هو أصيل في هذه الأمة. قردة وخنازير استغلوا غفلة الناس لينتجوا شعوبًا تعبد الطاغوت ودولا قبلية يسخر بعضها من بعض، ويلعن بعضهم بعضًا في الأرض قبل لعن بعضهم لبعض في السماء. ما لبثت الأيام أن جاءت تثبت أنها أردأ وأسوأ ما عرف تاريخ المسلمين من جاهليات ومن مراحل الردة والانحطاط.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: 92]. جاء هذا البلاغ والأمر في سورة الأنبياء وزاده الله تأكيدًا في سورة «المؤمنون» بقوله: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾. وبهذا البلاغ يتأكد أن نظام السياسة الإسلامي عالمي في مشروعه، كوني في امتداده، وأن المنهج الرباني لا تحمله سوى أمة رسالية تتوسط الأمم لتنشر بينهما كلمة الله، ولتكون بذلك ظاهرة على سائر الأمم عزيزة فيها: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: 143].

إن الرسالة الإسلامية الجامعة والشريعة المانعة نزلتا من أجل العالمين وفق تخطيط إلهي حكيم لنشر كلمته في العالم. وهذا البرنامج الرسالي الكوني هو من ضمن ما اصطفى الله لأجله النبي الأمي ﷺ واجتبى إليه أمته الأمية. وحيث قضت حكمة الله تعالى، وتأكد أمره، ونزل قراره بأن الأرض يرثها عباده الصالحون، فقد كان من ضرورات تحقق هذا القرار أن تنهض بأعبائه أمة آمنت بالله تعالى ولعنت الكفر بسائر أشكاله، وتشرعت بالدين، ونبذت سائر أحكام الجاهلية، وآمنت بالغيب وكفرت بالمادية.

إن مؤسسة الخلافة كنظام سياسي إسلامي قرآني، أمينة على البرنامج النبوي الخاتم القاضي بنشر القرآن الكريم بين الأمم، وهداية الناس إلي طريق ربّ العالمين. وهذه

الأمانة الثقيلة تقتضي من الجهاز والإعداد والاستعداد بكل وسائل التمدن والانتشار والإعلام ما يستنهض الرساليين لحمل رسالة التنوير الحقيقي للبشرية الذي يهديها سواء السبيل، وليس «التنوير» المزيف الذي حمل في أطوائه برامج الاستعمار والاستعباد وكل فلسفات إضلال العباد. إن اليهود والنصارى وقد حُمّلوا «كلمة الله»، سوف يبقون أبدا ساعين إلى الهيمنة الكونية، وإلى السيطرة على العالمين بدعوى حمل «رسالة التنوير» التي أصبحت وبفعل كفرهم «فلسفة التنوير»، أي خلاصة ما جادت به قرائح فلاسفتهم ونبهائهم، ولكن أنى «لفلسفة إنسانية» أن تضاهي عقيدة إلهية؟ وأني ل «عقد اجتماعي» يكتبه بشر أن يضاهي «شريعة إلهية» ؟

إن تأسيس الدولة الأمة ذات الرسالة العالمية يعد أهم أركان السياسية الإسلامية؛ وإن استيعاب مثل هذا البرنامج لا يقرر فقط موقع الأمة الوسط بين الأمم، بل يهديها إلى حقيقة اعتبارها، وإلى مؤسِّسات عزها؛ ويهبها بالتالي منطق وأسلوب معاملتها لسائر الأمم الأخرى. إن وراثة النبي الأمي ﷺ تمكّن من الاستفادة ومن استثمار الخصال الخمس التي وُهبها عليه السلام، والتي جعلت رسالته رسالة كونية عالمية بما يعنيه ذلك من حيازة كل خصال الكونية من انفتاح وعز وتطلع وحسن توجه، ونفي لكل آفات الانغلاق والتعصب والتكبر الفاسد على عباد الله والسعي إلى استعبادهم وإبادتهم لا إلى تحريرهم وإحيائهم. **عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلّت لي المغانم ولم تَحِلّ لأحد قبلي. وأعطيت الشفاعة. وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»**[1].

أمة ظاهرة على الأمم، مهيمنة على العالم بسلطان الحق والعدل (الشريعة)، جعلت من الأرض بأركانها الأربعة مسجدًا وطهورًا. من ناوأها وعاداها من أمم الأرض قهرته واغتنمته. نبيها على السلام مُقدّم على أهل الأرض قاطبة في الحياة الدنيا ويوم يبعثون.

(1) صحيح البخاري، كتاب التيمم حديث 335، ط المكتبة العصرية بيروت، 2005، ص 57.

ثم، ذات رسالة عالمية إلى الناس كافة تدعوهم إلى خير ما دعي إليه البشر من التوحيد والعدل والمساواة بين بني الإنسان بلسان صدق وبحجة رب العالمين، تلك هي الأمة الإسلامية الرسالية، وتلك هي المعالم الأساسية لسياستها الخارجية التي تعدّ من ضمن برنامج الشريعة الإسلامية المقرّر إلهيا والمنفذ أرضيًا من قبل الخلفاء الراشدين المرضيين. قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: 152].

بذلك تلتقي المصطلحات الثلاثة: **الخلافة - الشريعة - الأمة**، لتشكل محاور وقواعد السياسة الإسلامية ومؤسّسات نظامها. إن الخلافة بما هي نيابة عن الرسول ﷺ في تطبيق الشريعة الإلهية وإقامة سلطانها في أمة الإسلام بقاعدتها الأمية وأطرافها من سائر الأمم المستجيبة، تعد إقامتها واجبًا من أهم الواجبات التي افترضها الله تعالى على المؤمنين والمؤمنات الذين لا يمكن إلا إن يكونوا مجاهدين مجتهدين في سبيل مشروعهم الرسالي الذي هو مشروع سياسي بامتياز.

البرنامج السياسي الإسلامي:

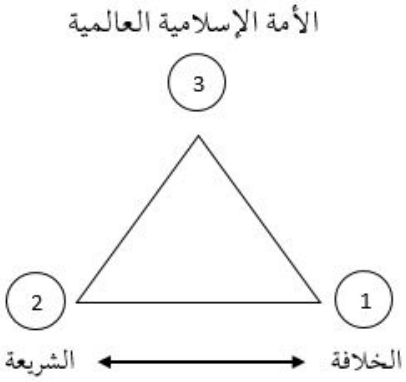

الفصل السادس

في الشحنة الثورية والتحريض الشريف

قال الله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: 25 - 27].

يرفع لواء الثورة الإسلامية الأميون أتباع النبي الأمي ﷺ الذين يحملون الإيمان بالغيب في قلوبهم يقينًا لا ريب فيه، ويجعلون نصب أعينهم ذلك اليوم الذي لا ريب فيه الذي فيه تتقوّم أعمال بني البشر أممًا وجماعات وأفرادًا.

إن اعتبار العمل البشري بالميزان الإلهي وحده وليس بموازين البشر، هو عين الإيمان وهو عين اليقين، ثم هو عين ومنبع العزة الإيمانية.

إن الخالق الهادي المدبر ذو الأمر الكوني والأمر التشريعي، المحاسِب للبشر في يوم الدين عن حركاتهم وسكناتهم وما وقر في قلوبهم من نياتهم، هو القاضي بصلاح هذه الأمة أو تلك وبخسران هذه الأمة أو تلك. وإن ترتيب أمر المصير الأقرب، أي العمل البشري فوق الأرض، مفصولًا عن المصير القريب، وهو ما يؤول إليه هذا العمل من جزاء بالجنة أو بالنار، عين الخسران، لأنه باختصار عين الكفران. يقول تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف: 103 - 105].

ولمّا كان الله سبحانه ديّان الآخرة التي إليها يؤول كل عمل الدنيا، فقد لا يحق إلا إن يكون مالك الملك في الدنيا، يؤتي الملك من يشاء و ينزعه ممن يشاء ﴿ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ﴾. ذلك أن الخير بيده سبحانه، والخير هو كل منافع الحق، لأنه لا خير إلا من الحق. ففضل الدنيا وأرزاقها المعنوية والمادية بيده وحده ينشرها حيث يشاء ويحجبها عمن يشاء.

فإذا زاغت الأبصار وانصرفت القلوب عن رؤية مصدر الخير، فإن لها في شأن الكون

دليلًا صاعقًا، فمن الذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل؟ ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي؟

هذا الفاعل القوي القدير الذي لا يمكن أن ينكر فعله هذا الذي هو ظرف كل فعل بشري وشرطه التكويني:الإحياء والامتداد، حاكم قاهر إليه مرد الاعتبار، وهو مصدر التقييم لفعل الإنسان وسعيه.

هذا اليقين الإيماني الذي ينعكس مباشرة على الفعل البشري فيوجهه كيفيًا ونوعيًا هو مصدر العزة الأمية، وهو بالضبط ما جعل من أولئك الأميين الذين ابتعثوا من صحراء العرب معلمين فاتحين لا برابرة متوحشين كما يُتوقع فيم لو قرئ تاريخهم مفصولا عن صلتهم بالكتاب الإلهي.

لقد قرؤوا، وكانت قراءتهم في كتاب واحد، من رب واحد، وعلى يد معلم بشري واحد، وما كانوا بقارئين في أصل الأمر، بل كانوا في ضلال مبين. ولمّا كان المقرئ عزيزًا حكيمًا، فقد كانت كلماته التي بثها في صدورهم مشحونة بالعزة والحكمة، فشرحت الصدور، ونفذت إلى العقول والقلوب والأبدان، ووضعت أوزار الجاهلية التي أثقلت الظهور، ثم رفعت الذكر، ذكر النبي الأمي ﷺ في درجات المقربين، ومن ثَم ذكر أمته في العالمين. لم يعد يمكن والحال تلك، أن يستمد الأميون من معين آخر، ولا أن يشربوا من مشرب ثان. لذلك جاءت الآية التي بعد آيات العزة مباشرة تنهى عن تولي المؤمنين الكافرين أو يحبط المشروع كله. قال تعالى: ﴿ لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [آل عمران: 28].

وإذا كان الولاء والبراء إنما ينعقد في الصدور، فان الآية بعدها مباشرة تقول: ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: 29]. إن منبع النفاق في الأمة الأمية، ومبدأ نجومه إنما نشأ من هذه الفعلة

بالذات، أي ولاء المؤمنين للكافرين وانقلابهم بالتالي منافقين يشتد نفاق الواحد منهم بقدر استفحال مرض موالاة الكافرين في قلبه، حتى يرتد وقد أصبح ليس من الله في شيء، والله تعالى ليس منه في شيء.

إن قارئ القرآن الكريم المتّبع لسنة النبي الأمي ﷺ إنسان اعتز بالله تعالى، ومعني العزة رفعة تنتج عنها مِنْعة واعتصام. وأعظم المنعة والاعتصام الغنى بالله تعالى عن الحاجة إلى البشر أجمعين. غنى بالتعليم الإلهي ينتج عنه بالضرورة صوم عما في أيدي الخلق، وطلب لكل رزق من الحق سبحانه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: 56 - 58]. فإذا استغنى العبد بربه وحده وأصبح عزيزًا، تهيأ عندئذ للرسالة، وأصبح في عصمة مانعة من الارتكاس في ذل الكفر والتبعية بالتالي لكل ناعق. إن صفاء مصدر التعليم، وعدم خلطه بأي تعليم آخر علي مستويي الرؤية الوجودية (الإيمان)، والحضارية (الشريعة)، وبناء الإنسان (الإنسانيات) بهذه المرجعية وحدها، شرط الشروط والأساس الأعظم، وهو عين المقصود بالمنهج الأمي الشريف. نؤكد على هذا ونؤمن به، وقد رأينا بأم أعيننا أن سر دمار النهج الأمي إنما كان منطلقه اختلاط السياسة الشرعية بالسياسة «الكسروية - الهرقلية» كما سماها السلف الصالح وهم يشاهدون بأم أعينهم انقلاب الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض مهد له «معاوية بن أبي سفيان» بدعوى اتقاء استضعاف أهل الكتاب وأمم الحضارة السابقة للأميين فيم لو لم يأخذوا بمظاهر الملك والسطوة الظاهرة. ثم لم يلبث أن أركسته دعواه تلك في اتخاذ قصر الخضراء والدعوة من بعده لابنه «يزيد بن معاوية» في فتنة كبرى اختلطت فيها الدعاوى وكاد فيها القرآن أن يفترق عن السلطان لولا رحمة الملك الديّان.

و قد لا يعنينا ما فعلته الأمة السابقة فقد خلت، وإنما يعنينا أن نؤكد على أننا كلما أصررنا على بناء الإنسانيات (البرنامج التعليمي)، بالإلهيات (القرآن الكريم والسنة الشريفة)، واتخذنا هذا المنهج مبدأ، فإننا في مأمن من نجوم النفاق وظهور أعراضه ثم أمراضه فينا.

إن سرّ دمار الأمة الأمية وذهاب معناها بعد ذهاب سلطانها، إنما سببه دخول التعليم الكفري على مناهج الأميين وانخداعهم به ثم ولعهم به حتى أصبحوا منه في غاية، وجعلوا من حفظه هواية، وهجروا القرآن الكريم، وحقت فيهم كلمات الفرقان: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ [الفرقان: 30 - 31]. وأسوأ تعليم كفري إنما ولج على الأميين من قِبل أهل الكتاب الذين يعدّون أسوأ من كفر نظرا إلى كونهم عرفوا الحق ثم جحدوه، فأصبح ديدنهم تلبيس الحق بالباطل، وكتمان الحق وتحريف الكلم عن مواضعه، وهي سمات وحقائق كامنة في كل العلوم التي نشأت في المناطق الكتابية أي في الإنسانيات الكتابية: (علم النفس - علم الاجتماع - علم التاريخ - فقه القوانين ...)، يختلط فيها الحق بالباطل ويلبس الباطل ثوب الحق، ويكتسي المنهج ثوب الموضوعية وهي منه براء؛ وفيها جميعًا لذي علم حقيقة واحدة كامنة تدل على ضلالها المبين: أن المعلّم فيها إنسان وليس الرب الديّان.

فما المطلوب إذن؟

إنّ أيّ إيمان كبير ينطوي على كفر كبير. وكلما اشتعلت كلمة «لا» بالرفض التام والكفر التام بأي إله «لا إله»، كلما كان الاستثناء قويًا تامًا مزلزلًا «إلا الله». وبذلك يصح أنّ أعظم المؤمنين هم في الوقت نفسه أعظم الكافرين. إن قوة الكفر والإيمان تنبعان أبدًا من نفس معين التكوين الرحماني الذي بنى الإنسان على هيئة التكوين الكوني، أي ضمن قوتي الحياة والموت (الإيجاب والسلب). فلكي يثبت الإنسان ولاءه التام لله الواحد، عليه أن ينفي عمّا سواه أي تعظيم يمكن أن يسند إليه .فصحّ أن التعريف الأصفى للتوحيد كونه: «**إفراد الله تعالى بالتعظيم**».

إن أساس الخراب الذي نحياه اليوم والذي آل إلى ما نرى مما لم يعد يحتاج إلى وصف، حيث أصبح واقع الأميين مأساة تنفطر لها القلوب وتذرف لها أعين المتعاطفين

من الأعاجم دموعًا رقراقة[1]، إنما نشأ من موالاة جمهور من الأميين لليهود والنصارى: تعلموا علومهم واصطبغوا بصفاتهم وعظموا صنائعهم حتى انتهوا إلى التدين بدينهم الذي ليس هو النصرانية ولا اليهودية بالتأكيد فقد كفروا بهما منذ عهود، وإنما هو دين المادية هوى وإلها، والأنانية خُلقا، والعبثية مقصدًا.

وإذا نظرنا إلى واقعنا ولنأخذ وضعنا في تونس على سبيل المثال وهي أنموذج للمغرب الإسلامي خاصة ثم للعرب بصفة عامة، فإن نظامنا التعليمي لا يمكن أن ينتج بالضرورة سوى أناس «علمانيين» انفصلت دنياهم عن دينهم، واقتصادهم عن اعتقادهم، وهواهم عن رشادهم، الأمر الذي أدى إلى الخراب الرهيب الذي قاد إلى ظهور الأعرابي في الزي المدني، والعسكري في ثوب الديمقراطي؛ بل إنّ الفطرة نفسها قد تفسخت بفعل هذا الضلال الرهيب فأظهرت الأنثوي في ثوب الذكري والذكري في ثوب الأنثوي، الأمر الذي أنذر بضرورة الثورة الشاملة، فما كان الله تعالى ليصلح عمل المفسدين.

ولقد تمّ الأمر، وانهار الطاغوت وهرب، ونعم بالله نصيرًا للمستضعفين؛ إلا أن المطلوب اليوم في تونس كما في سواها من مناطق الجغرافيا الأمية (أرض العرب)، تحقيق ثورة الوعي، الثورة الرسالية القرآنية؛ الثورة التي تكفر بالنفاق وحزبه في الداخل، وما النفاق سوى الولاء للكفار من أهل الكتاب المتسربل بزي الإيمان ظلمًا وعدوانًا بل وخداعًا وتضليلًا.

إن الرفض القاطع للبرنامج الكتابي (اليهودي - النصراني) في مقصده العبثي عبر التمسك بالإيمان، ولمنهجه التاريخي الاجتماعي الذي عماده الاقتصاد السياسي والتشريع القانوني الدستوري، وبناء نظام عمران جديد يعي أين تكمن معاني الكفران والخسران وادعاءات

---

(1) تلك دموع مهاتير محمد رئيس ماليزيا الفاضل وهو يبكي حال «العرب». ودموع رجب الطيب أردوغان يبكي مجزرة رابعة في مصر التي قادها المنافق عبد الفتاح السيسي داعيًا إلى استعادة حكم العسكر وأعراب النفاق.

الإنسان، ويستوعب حكمه وشريعة الرب الخالق الديّان، هو مطلوبنا اليوم. وهو يسير وليس بالعسير إذا ما قامت كلمة «لا» في قلوب الأميين لتصنع النفي القاطع لهوى اليهود والنصارى المتدثرين نفاقًا باسم «الغرب». فإذا ما سلم القلب من «أهواء الذين لا يعلمون»، وأصر على أخذ التعليم الإلهي المحكم الواضح بجمله وتفصيله دون أن يظلم منه شيئًا: ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ [المائدة: 49]، فسيتم للمؤمنين إصابة المنافقين في مقتل لا نجاة لهم معه. فإذا ارتفع النفاق فليس أهل الكتاب بذوي قوة معتبرة: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: 111]؛ وسيقولون للأرض الأمية ما قاله هرقل مودعًا سوريا: «الوداع يا سوريا الوداع الأخير»[1].

ذلك أن النفاق وقد نجم وظهر وحكم واستفحل أثره في العقول والقلوب والأنفس، قد وطأ لليهودية والنصرانية (أهل الكتاب)، وللعقائد الكفرية من كل مكان ومن كل بقعة من بقاع الأرض أن تغزو دار الإسلام، لا بل أن تستقبل بالحفاوة والتعظيم في جاهلية جهلاء جعلت برنامجها الأوحد النكاية بالإسلام والمسلمين.

ولمّا كان النفاق يغول الإيمان ويستولي على القلب ويسري في الذات المعنوية للإنسان مسرى الدم في العروق، وحيث تشرّبه أبناء هذه الأمة ومردوا عليه، وحيث لابد من آية (علامة) تميز المنافق من المؤمن، فإن العلامة القاطعة للنفاق على مستوى التشريع (بناء المجتمع والأمة): رفض الحكم بما أنزل الله تعالى إما كليًا أو جزئيًا، والاعتزاز بمناهج الكفار من كل أمة وكل فرقة ونحلة.

قال الله تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ١٣٨ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ١٣٩ وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا

(1) نقلًا عن عباس محمود العقاد، معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية في الميزان، مصر، دار اليقين للنشر والتوزيع، ط1، 2015، ص31.

مِّثْلُهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء: 138 - 140]. إن المنافقين لمّا كانوا حزب المتسلقين بامتياز، لن يتوانوا عن ركوب الثورات الشعبية التي انبعث نورها واشتعل لهيبها، ولا بد من علامة تُبين عن حقيقتهم، ولا علامة أقوى من العلامة القرآنية الهادية إلى حقيقة ولاء المنافقين للكفار ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ ﴾، فإن سئلوا عن ذلك، تذرعوا بأنهم إنما يطلبون العزة ﴿ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾[1].

ذاك ميزان الفصل، وتلك آلة ميز المنافقين من المؤمنين خاصة في هذه المراحل المتحركة والأزمنة المثقلة بأعباء التاريخ، أعني نبذ القديم الفاسد والاستعداد لغرس الجديد النافع.

وما لم نحسن قراءة الشر في وجوه الأشرار، واستقراءه في لحن أقوالهم، فلن نفلح في بناء اللحمة الإيمانية التي بدونها لن يتأسس العهد الجديد.

إن أهل الكتاب (اليهود والنصارى) جاهزون أبدا لتقديم «فلسفاتهم» و«نصائحهم». وإن «منظماتهم» العتيدة التي أصبحت اليوم ترفل في «عز» «الكونية» و«الأممية» و«العالمية»، لتجد في عالمنا الضعيف مرتعًا خصبًا وآذانًا صاغية أسلمت قيادها وضيعت أوتادها؛ وإن آلة اليهود والنصارى ومرتعهم الخصيب فينا لن يكون سوى مرتع المنافقين أعضاد الكفار في كل زمان[2].

يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ

(1) ليس من قبيل الصدف، فلا صدفة في التاريخ كما لا صدفة في الكون، أن يتهالك على ادعاء الانتماء إلى الثورة التونسية بل ادعاء إشعال لهيبها وإيقاد جذوتها أناس وجماعات ومنظمات وأحزاب هي في حقيقتها رؤوس الفساد وأزلام الطاغوت البائد وعشاق أنظمة الاستبداد.

(2) راجع لمزيد التعرف على النفاق والمنافقين كتابنا «انهيار الإنسان في القرآن الكريم: دراسة في النفاق»، لبنان، مكتبة حسن العصرية، ط 1، 1429 هـ - 2009 م.

أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنًا وَتَوۡفِيقًا ﴾ [النساء: 60 - 62].

ما أعجب شأن النفاق! وما أشد خطره وضرره! ففي تونس اليوم، وقد افتتحت زمن الثورات الشعبية المباركة، تتداعى جحافل اليهود والنصارى حاملة ألوية «الإصلاح» و«التحديث»، نافخة في أعطاف «المجتمع المدني»، تبني الجمعيات والمؤسسات على هواها وتتدخل في أدق تفاصيل برنامج «الإصلاح» كيلا ينحرف عن النهج «الكفري الكتابي اليهودي المسيحي». وتحت اسم الثقافة الكونية، ومن خلال المنظمات «الأممية»، بدخل كل شيء ليلبّس من جديد على الأميين «ثوراتهم» هذه المرة، كما لبّس عليهم «استقلالهم» لكي ينقلب «استعبادًا» واستعمارًا جديدًا لكن بيد أبنائهم وتحت سياط «أبناء جلدتهم».

هذا، ولا اعتصام ولا نجاة لهذه الثورات المباركة إلا بالانصهار ضمن المنهج الإلهي لتأتلف في قالب ثورة إسلامية سنّية أمّية ثم عالمية يوجهها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء: 59].

هل نحن مع إحياء صراع الهوية من جديد بعد أن أثبت عقمه وضرره وكونه أدخل المسلمين المتأخرين في متاهات لا طائل من ورائها ؟

لسنا ضد صراع الهوية، فهو حقيقة وجودية بالنسبة للكينونة الإنسانية مرتبطة بقصد خلقتها وبرنامج إيجادها: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ [التغابن: 2]. ولن تخلو الإنسانية من صراع وإلا لما كان لهبوط الشيطان معنى، ولا لنزول الهدى الإلهي معنى. إلا أن حقيقة صراع الهوية كونه صراعا بين المؤمنين والكفار الذين

يدينون لإلهين مختلفين، الله الحق وإله الهوى. أما المنافقون، فماهم بأهل صراع، وليسوا من باب أولى بنافخي طبول الحروب، وهم في الجبن مضرب المثل، وما مَثلهم إلا كمثل اليربوع لا يدخل جحرًا بدون اتخاذ نافقاء يفر إليها إذا ما سدّ عليه باب القاصعاء. وما بين الكفر والإيمان يتقلب المنافقون تقلب اليربوع ما بين قاصعائه ونافقائه ليحق فيهم قول الله تعالى: ﴿ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴾ [النساء: 143].

إن المنافقين أهل خداع وليسوا بأهل صراع، وإن أعظم الجهاد لأهل الخداع كشف خداعهم، وإظهار ما خفي من برامجهم الخبيثة التي ظاهرها النفع وباطنها الضر كل الضر: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴾ [النساء: 63].

ولا قيام لبرنامج النفاق إلا بقيام برنامج الكفر، ولذلك يسعى المنافقون بكل ما أوتوا إلى تحريض الكفار على المؤمنين، وإلى إعادة توطين برامج الكفار في أرض الإسلام، لذلك يتوجب على أهل الثورة من المؤمنين أن يحذروهم: ﴿ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾ [المنافقون: 4].

إن الثورة الحقيقية في المنطقة الأمية هي الثورة الإسلامية التي ستأتي بالعزة للأمين كما جاءتهم الثورة الشعبية بالكرامة. وإن الاقتراب من المطلب الكبير يكون بقدر تكسير الحواجز دونه، وليس دونه سوى حاجزي الكفر والنفاق اللذيْن أمر الله تعالى بمجاهدتهما الجهاد الكبير الواحد تلو الآخر، والواحد قبل الآخر، والواحد مع الآخر:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [التوبة: 73].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [التحريم: 9].

البرنامج التفصيلي

1. موجِّهات النظام السياسي

المقصد: إعانة المؤمنين على التحلي بالإيمان + العمل الصالح المفضي إلى سعادة الدارين.

❁ نظام الحكم:

1. مصدر الشرعية:

أصل القانون - الشريعة الإسلامية:

- النص الإلهي: القرآن الكريم والسنة الشريفة
- الاجتهاد على ضوء النص الإلهي

2. الهيكل التنظيمي:

- الخليفة = نائب الرسول صلى الله عليه و سلم.
- أولو الأمر : الكيان التشريعي
- القضاة
- الكيان التنفيذي: الموظفون
- عامة الناس

3. قاعدة الاختيار والتصنيف:

سلّم الكفاءات والميزان الانتخابي:

- الخُلق
- الجهاد: البلاء في سبيل الدين والأمة
- الاجتهاد: الاقتدار العلمي

❁ الانتظام الهيكلي:

تنتظم كل القطاعات في هيئات منتخبة يراعي فيها الميزان الانتخابي.

- الهيئات ليست نقابات وليست رئاسات للأعراف: كيانات جامعة تهتم بكل ما يتصل بشأن القطاع: نظام الأمناء

دورها سياسة القطاع:

- الإرشاد
- التوجيه
- الطلبات
- الترقيات
- الخدمات الاجتماعية: التأمينات

2. موجِّهات النظام الاقتصادي

المبادئ العامة والتوجيهات:

- عدم أكل الناس أموالهم بينهم بالباطل
- تحريم الاستئثار بالثروة: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: 7]
- تحريم الكنزية: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: 34]
- تحريم الإسراف (تجاوز الحد في الإنفاق) من جهة المشتري وتحريم الاحتكار (تجاوز الحد في الإمساك) من جهة البائع.
- تحليل البيع وتحريم الربا.
- بناء المؤسسات المالية:

تنقسم المؤسسات المالية داخل دائرة الاقتصاد الإسلامي إلى مؤسسات ربحية ومؤسسات غير ربحية. وفضيلة الإسلام كونه أعطى للمؤسسات الغير ربحية وجودًا قانونيًا شرعيًا ووجه نحو إثرائها والعناية بها توجيهًا قويًا صارمًا وأكد أن الأجر على تنميتها عظيم في الدارين. واليوم يثبت الاقتصاديون الخبراء أن المؤسسات الغير ربحية أكبر ضامن لنمو رأس المال نموًا إيجابيًا ولتجاوز أخطر الأزمات المالية التي وقعت فيها الاقتصادات الربوية[1].

(1) راجع للتعرف على نظام المالية الإسلامية في خطوطها العريضة كتاب مدخل إلى أصول التمويل الإسلامي، سامي بن إبراهيم السويلم، بيروت، مركز نماء للبحوث والدراسات، ط 1، 2013.

المؤسسات الربحية	المؤسسات غير الربحية
	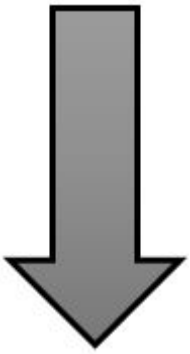
كل أنواع التبادل والمعاوضات كالبيع والإجارة والسلم..	- مؤسسة الزكاة - القروض الحسنة - الصدقات - إطعام الفقير والمواساة في الشدائد - الأوقاف

❁ دور الدولة العادلة منح احتكار المال لدى طبقة واحدة وتعديل موازين التبادل والمعاملات بحيث لا يحتاج فقير ولا يترف غني.

3. موجِّهات النظام الاجتماعي

❁ قاعدة النظام الاجتماعي الإسلامي : الأخوة الإيمانية التي تتوحد فيها وحدة الأصل الإنساني ووحدة الانتماء الديني

❁ قاعدة الاعتبار وتوزيع الأدوار: الانضباط للأوامر الشرعية والتعاليم الإلهية بشأن الحقوق والواجبات الفردية والأسرية والاجتماعية وأساس ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: 32].

الأسرة والمجتمع

المودة والرحمة الأسرية القائمة على الأصول الشرعية:
- قوامة الرجل
- حقوق النساء
- رعاية الأطفال

مؤسسات الحماية الأسرية:
- الفضاء الأهلي.
- دوائر الصلح

مؤسسات العون الأسري:
- كل المؤسسات الضامنة لإعانة الأسرة على أن تحيا الحياة الطيبة

وعلى حسن تربية الأبناء

التعاطف الاجتماعي
- مؤسسات التراحم والتعاطف:
الأيتام
الأرامل

العجز ..

4. موجِّهات النظام التعليمي

الهدف: تأسيس بنيان الإنسان على قاعدة الإيمان والعمل الصالح بواسطة العلمين: علم الفهم (الوجودي)، والعلم الكوني (قوانين الطبيعة وقوانين التاريخ).

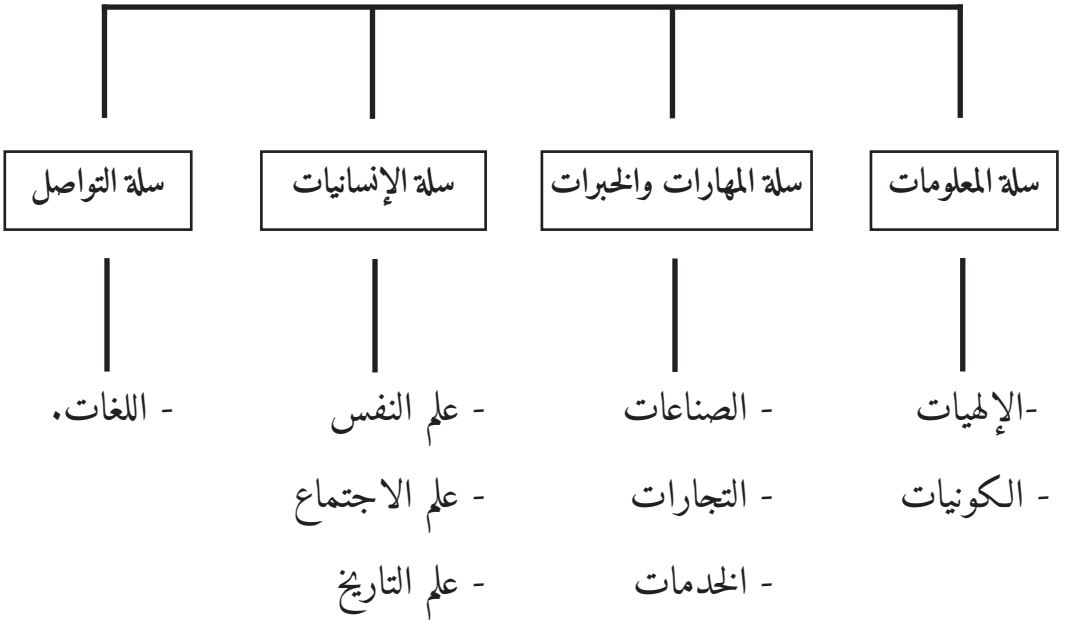

❁ تترابط هذه السلال المعرفية لتبني الإنسان على قاعدة الإيمان والعمل الصالح (الإسلام).

ويراعى في تقديمها الكيف وليس الكم وتراعى السنّ والوقت (لا سبيل لأن يقضي الطالب يومه كاملا وهو يتعلم ثم يطلب منه أن يحب مدرسته ومعهده).

خاتمة

وبقوله تعالى:

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: 53]

نختم.

تم بحمد الله

saidelchebli@gmail.com

المحتويات

تقديم 5

I. الرسالة القرآنية وحقيقة المشروع الأمي **13**

1.الركن المضموني للرسالة القرآنية 17

2.الركن المنهجي 18

3. الركن الجهادي 20

4. الانتصار الكبير وبناء المدنية الأمية 23

II. تضامن الخطين: الخط الكتابي والخط الجاهلي وعودة المشروع الظلامي (الكفر والنفاق) **27**

III. الثورة الشعبية ووعود الحرية **35**

1. الدولة الإسلامية ضرورة تاريخية 44

2. الشريعة الإسلامية 50

VI. الثورة الإسلامية **61**

1. الثورة والدولة الإسلامية 82

2. الأمة - الدولة - الشريعة 84

V. برنامج الدولة الإسلامية: الخلافة – الشريعة –الأمة **87**

أ. الشورى 95

ب. الشريعة 98

ج. الأمة 104

IV. في الشحنة الثورية والتحريض الشريف **109**

IIV. مقاربات في البرنامج التفصيلي للخلافة الإسلامية **120**

- الكيان السياسي. 120

- الكيان الاقتصادي 122

- الكيان الاجتماعي 124

- الكيان التعليمي. 125

خاتمة 126